مرتضى المطهري

دروس من القرآن

ترجمة: جعفر صادق الخليلي

دار التعارف للمطبوعات

دروس من القرآن

من سور :

الأنشراح

القدر

الزلزال

العاديات

العصر

مع محاضرة عن ضرورة تعلم اللغة العربية

ضرورة تعلم اللغة العربية

هذه محاضرة كان الأستاذ الشهيد قد ألقاها في المؤتمر الثاني للغة العربية تحت العنوان المذكور نفسه ، رأينا أن نفتتح بها هذا الكتيب ، لتوكيد وجهة نظر الأستاذ في ضرورة تعلم اللغة العربية ، لغة القرآن المجيد ، حفاظاً على الآداب الأسلامية وثقافاتها ، ومنها الأدب الفارسي والثقافة الفارسية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، بارىء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله ونبيه وصفيه ، سيدنا ومولانا أبي القاسم ، محمد (ص) ، وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين .

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِي مُبِيْنٍ ﴾ .

ستكون أقوالي مختصرة جداً وقصيرة . إنني هذه الليلة سعيد ومسرور ، واذا كان بعض الحاضرين المحترمين قد حضروا محاضراتي خلال الست أو السبع سنوات الماضيات يتذكرون إني قد كررت في محاضراتي هنا ، أو في حسينية الأرشاد ، أو في أي مكان آخر ، قولي بضرورة « تشكيل دورات لدراسة اللغة العربية » ، وهذا ما كنت أنبه إليه دائماً . وأقول إن تدريس اللغة العربية من أهم وظائف

المؤسسات الدينية ، سواء أكانت مسجداً ، أم حسينية ، أم هيئة ، أو حتى في جلسات التفسير وغيرها . . . مهما تكن ، فان من أهم المسائل تعليم العربية للأفراد والأطفال . ولقد أوردت الكثير من الأدلة على هذه الضرورة ، وسوف أورد بعضاً منها الآن بلغة بسيطة لتشويق الزملاء والاصحاب .

إن اللغة العربية لغة كتابنا ولغة ديننا . تعتبر اللغة الفارسية بالنسبة لنا نحن الأيرانيين ، لغتنا القومية ، ولكن اللغة العربية لغة ديننا ومذهبنا ، بالنظر لكوننا مسلمين ومتمسكين بالأسلام وبالقرآن ، كتابنا الديني .

إن من خصائص القرآن التي يختص بها من بين الكتب السماوية هي إن لغته جزء من إعجازه . إن أياً من الكتب الدينية لا يستند على لغته ، بل على محتواه فحسب . فاذا أخذنا التوراة ، التوراة الأصيل الذي نزل على موسى ، أو الانجيل الذي نزل على عيسى ، أو أياً من الكتب التي نزلت على الأنبياء ، نجد أن محتواها هو المقصود ، دون الالتفات الى اللفظ وجمال اللفظ ، والخصائص اللفظية . إن المحتوى مهما يكن ، وبأي لفظ كان ، فهو نفسه . أما القرآن ، وهو الكتاب السماوي الأخير الذي نزل على البشر ، فقد اقتضت الحكمة الآلهية

أن تكـون لغته ومحتـواه الفني من صنع الله الـذي أنزلـه على نبيه .

سبق لي أن ذكـرت في إحدى جلسـات التفسير لـلأخوة الـذين كانـوا حاضـرين ، جانبـاً مما يتعلق بكلمـة « إقرأ » حيث قلت لهم : لاحـظوا إن هـذه الكلمـة لا تقـال إلاّ إذا كـان هناك نص قـد أعـد من قبـل . أي اقـرأ مـا أعـد من قبـل ، وذلك لأن القـرآن كـان قـد أعـد بـألفـاظـه في عـالم الوحي قبل نزوله على الرسـول . فالآيـات كانت مهيـأة من قبـل ، ثم كانت تتـلى أو تقرأ عـلى الـرسـول . وفي الـوقت نفسه كان اللفظ ، بكل ما فيـه من خصوصيـة وجمال ، قـد عـرض بأروع صـوره بحيث لو ان الضليـع باللغـة العربيـة وآدابها، يستعرض جميع النصوص العـربية لمـا قبل الاسـلام وبعـده (وطبيعي أن يقلد النـاس كـل رائعـة تـظهـر إلى الوجود) بما فيها النصوص الواردة عن الأئمـة ، مثلاً « نهج البـلاغة » لأمير المؤمنين، و« الصحيفـة السجاديـة » للامـام زين العابدين ، أقـول لو أننـا وضعنا هـذه كلها الى جـانب القرآن ، لوجدنا القرآن يمتاز بأسلوب يختص به ، ولم يسبق له مثيل .

إن الـوقت لا يسمح الآن بـان أشـرح بـاسهـاب كيف اننا عندمـا نقرأ في نهج البـلاغة ، في خـطب أمير المؤمنين،

التي تضج بالفصاحة والبلاغة ، آية قرآنية ، نراها تلتمع بين ما يحيط بها من كلمات الامام ، ولا يخفى كونها تختلف ، وأنها كلام غير ذاك الكلام . ثم جاء كثيرون ، أصدقاء وأعداء ، وحاولوا ان ينسجوا على منواله ، وفشلوا . اذن فهذه الخصوصية موجودة في كتابنا السماوي ـ والخصوصية اللفظية التي هي جزء من إعجاز القرآن ، أي إنه نزل هكذا مع إعجازه اللفظي من قبل الله سبحانه وتعالى . ونحن بالنظر لكوننا متمسكين بالقرآن ومتمسكين بالاسلام ، لا يسعنا أن ننظر الى لغة الاعجاز التي نزل بها نظرة اللا مبالاة . أعتقد ان المرء إذا لم يكن متمكنا من اللغة العربية ، ولا أقول كل التمكن ، ولكن إلى حد ما ، لا يستطيع أن يدرك مفاهيم الاسلام .

نعود الآن إلى اللغة الفارسية ، أفهل اللغة الفارسية هي لغة سعدي ؟ أهي لغة حافظ فقط ؟ كلا . أهي لغة مولوي أو لغة نظامي ؟ كلا . أهي لغة فردوسي أو صناعي ؟ كلا . لغة عطار ؟ كلا . فلغة من هي اذن ؟ إنها لغة مئات الشعراء والأدباء الذين تعاقبوا على صنعها .

لو لم يكن سعدي لكانت اللغة الفارسية ، ولو لم يكن فردوسي لكانت اللغة الفارسية . ولو لم يكن حافظ لكانت اللغة الفارسية . إن أياً من هؤلاء لم يصنع اللغة الفارسية

بمفرده . لو لم تكن مثنويات مولاوي ، لكان للغة الفارسية وجود أيضاً . إن لهم ، على كل حال ، مساهمتهم ، بأقل مما هو موجود .

إن اللغة الوحيدة التي كان يمكن أن تزول من الوجود لولا القرآن هي اللغة العربية ، او لو بقيت لكانت من اللغات المحلية المهجورة ، مثل اللغات في الدرجة المئة والتي لم يسمع بها أحد . إنها كانت لغة قبيلة بدوية . إلا أن القرآن أحيا اللغة العربية . ثم إن اللغة العربية لا تختص بالعرب ، بل إن العرب يختصون باللغة العربية . فانت مثلا تقول : المصريون ، السوريون ، الجزائريون ، الأردنيون ، العراقيون ، المراكشيون ، التونسيون ، أي إن أكثر العرب من غير الحجاز واليمن .

فهؤلاء العرب إنما هم عرب بلغة القرآن ، أي إنهم لما نزل القرآن ، تمسكوا به ، واختاروا لغة القرآن ، وهم لهذا أصبحوا عرباً ، وإلا فانهم من حيث العنصر ليسوا عربا ، لذلك فانهم هم الذين يعودون الى اللغة العربية ، وليس العكس ، إن الخطأ الذي نرتكبه هو أننا نحسب اللغة العربية تعود للمصريين ، أو للجزائريين . ولكن الأمر ليس كذلك في الواقع ، فاللغة العربية تعود لنا بقدر ما تعود لهم . فهؤلاء يدعون باللغة العربية لكونهم

مسلمين ، وإلا فانهم ليسوا عرباً ، ولكنهم تكلموا بهذه اللغة وكتبوا بها ، واهملوا لغتهم الأم . إنهم يرون اللغة العربية لغتهم لكونها لغة دينهم .

نحن أيضاً مسلمون ، ولذلك ليست اللغة العربية لغة الحجاز ، ولا لغة اليمن ، إنها لغة القرآن . هل يستطيع قوم أن يقولوا إن القرآن قرآنهم ؟ الحجازيون ، اليمنيون ، المصريون ، ألهم أن يقولوا إن القرآن قرآنهم ؟ ما من قوم له أن يدعي ذلك . ولما كانت اللغة العربية لغة القرآن ، فما من أحد له أن يدعي بأن العربية تختص به دون غيره . إن اللغة العربية هي اللغة الدولية الأسلامية .

وعليه ، فاننا بالنظر للضرورة الدينية ، نعتقد بلزوم تعلم اللغة العربية ، خاصة واننا نرى إن الآداب الأستعمارية تظهر القضية بشكل لا ادري ما وراءه من لغز ، فاللغة العربية تدرس في مدارسنا ، ولكنه تدريس عدمه خير من وجوده ، من بعض الوجوه . إنهم يعلمون الطلاب بحيث إن أحداً لا يتعلم اللغة العربية ، بل تتولد فيهم فكرة موحشة عنها ، ويفرون منها ، حتى أصبح تعلم اللغة العربية في نظر الطلاب أشبه باقتلاع الجبال . ولكننا نرجو أن تكون أمثال هذه المجالس والمحافل والمدارس ،

بمديريها الكفوئين ، قادرة على تدريس اللغة العربية بيسر وببساطة تزيل الرهبة من جو الصفوف إزالة تامة .

المسألة الثانية في لزوم تعلم اللغة العربية ، مسألة مهمة جداً . إننا ، اذا شئنا الحقيقة ، لا نملك ثقافة عربية وأخرى فارسية . إننا نملك ثقافة اسلامية ذات وجهين ، وجه عربي وآخر فارسي ، أو تركي ، أو هندي ، او اردوئي الخ . . . إن الخبير المطلع على الثقافات ، والعارف بروح الثقافة الاسلامية ، يلحظ إن هذه الثقافة تتجلى في لغات مختلفة ، ومنها اللغة الفارسية . فلكم أن تطلقوا على هذه الثقافة اسم الثقافة الاسلامية بوجهها الفارسي . المهم هو إن هناك اليوم ثقافة لطيفة وعميقة . أود أن أسألكم ، هل يستطيع المرء أن يفهم الثقافة الفارسية بدون أن يتعلم العربية ؟

ولتبسيط الأمر لا أستشهد بمثنوي ، ولا بصناعي ، ولا بناصر خسرو ، ولكن فلنأخذ سعدي الذي كان قوله من السهل الممتنع ، فهو أساس المذكورين أسلوباً . فهل يتمكن أحد من أن يفهم كلام سعدي فهماً جيداً بدون أن يكون ملماً باللغة العربية ؟ فلننظر إليه حيث نظم الشعر بالفارسية وبالعربية ، شطر بالعربية وشطر بالفارسية . ولو لم يكن سعدي عارفاً باللغة العربية لما كان سعدي ، وما

كان يمكن أن يكون . إن من يعرف أدب سعدي ، لا بد أن يعرف أيضاً إن هذا الرجل قد تربى في الثقافة العربية ، حتى إنه يستعمل مصطلحات وتعابير لا تتفق مع المحيط الفارسي ، بل تتفق مع المحيط العربي :

« جشم بد از دور اي بديع شمايل
ماه من وشمع جمع مير قبائل »

فتعبير مير قبائل (أمير القبائل) ليس تعبيراً فارسياً ، بل هو تعبير عربي . وأمثال هذا كثير اذا شئنا البحث عنه .

هنالك أفراد يحملون العداء لهذه الثقافة ، ويريدون أن يزيلوا الثقافة الفارسية الموجودة من الوجود ، لأنهم أعداء الثقافة الأسلامية أصلاً . يقول هؤلاء : إن لنا اقتراحاً بسيطاً جداً ، وهو أن نغير حروفنا ، فكل ما أصابنا من انحطاط وتخلف جاء من الكتابة بهذه الحروف . فلنغير حروفنا إلى اللاتينية ، مثلما فعلت تركيا وتقدمت كثيراً .

ويضيفون قائلين : « علينا أن نسعى لازالة اللغة العربية من اللغة الفارسية » .

أتعلمون ماذا ستكون النتيجة ؟ النتيجة هي أنه

بذهاب هذا الجيل والجيل الذي بعده ، تصبح هذه الآثار التي مضى عليها ألف من السنين ، هذه الآثار الفارسية (ولا أقول العربية) ، بما فيها كلَستان سعدي ، أشياء غير مفهومة عند الطالب الثانوي ، أو حتى عند الجامعي . يقولون ما أبدع هذا ، فلكي ننجذب نحو الغربيين جاؤنا بلغتهم الأنكليزية ، وقد سبق أن حملونا باللغة الفرنسية ، وهناك لغات أخرى أيضاً ، وهي لغات نعرفها ، ونعرف حروفها ، وندرك مفاهيمها جيداً ، وكذلك نعرف ثقافاتها ، او نتعلمها ، وإذا انقطعت علائقنا بالماضي ، فلا بأس . فماذا يكون حكمنا ؟

سيكون حكمنا حكم اللقيط الذي يأخذونه الى دار الحضانة ، فيكبر هناك ثم يسألونه : من أبوك ؟ لا أدري . من أمك ؟ لا أدري . لقد انقطع ما بينه وبين أبويه ، ولا يعرف سوى العلاقة التي تربطه بالمكان الذي تربى فيه ، فمن أبوه ؟ يقول : عندما كبرت رأيت هذا الرجل . من أمه ؟ يقول : عندما كبرت وجدت هذه المرأة . إنهم يريدوننا أن نكون مثل هؤلاء اللقطاء الذين لا يعرفون أباً ولا أماً . إن والدّي كل قوم حضارتهم الماضية ، تاريخهم السابق . ولكن هؤلاء ، لكي يقطعوا صلتنا بالماضي ، يقترحون علينا أن نرفع اللغة العربية .

ما كان سعدي بهذه المقدرة إلا بهذه اللغة الفارسية الجديدة ، أي هذه اللغة التي تستقي من اللغة الفارسية ومن اللغة العربية ، فهو لهذا قوي متمكن ، وما تمكنه إلا لمعرفته بالكلمات الفارسية والكلمات العربية ، ولاطلاعه على المصطلحات الفارسية والمصطلحات العربية ، له حظ من اللغتين ، وهما كالشمع بين يديه . أول ما علينا هو أن نعرف سعدي . إن فردوسي قلما يستعمل اللغة العربية ، وبفردوسي وحده لا تتكون اللغة الفارسية ، ولا الحضارة الفارسية . وحافظ ألا يفهم ، وهو الذي بدأ بيت شعره بالعربية ؟

« ألا يا أيها الساقي أدِرْكأساً وناوِلها
كه عشق آسان نمود أول ، ولي افتاد مشكلها »

ويختم القصيدة بالعربية أيضاً :

« آكر خواهي از او غافل مشو حافظ
متى ما تلق من تهوى دع الدنيا وحولها »

شطره الأول عربي ، وشطره الآخر عربي . فهل يعني هذا إن علينا أن نقبّل ديوان حافظ ثم نتركه جانباً ، وأن نفعل مثل ذاك مع سعدي أيضاً ، ومع مثنوي ؟ أن نلقي

كل ما لدينا في زاوية النسيان ؟ ثم نبدأ بقراءة شكسبير ؟ حسن جداً هذا ، وعندئذ ننسى أننا ايرانيون أصلاً ، دع عنك أن نتذكر اننا مسلمون . وعليه ، اذا كنا حقا نريد حضارتنا ، الحضارة التي هي دليل استقلال شخصية قوم ما ، فعلينا أن نعلم أن بقاء شعب ما يستند إلى حضارته المبنية على أساس من حضارته القديمة ، مهما دخل فيها من جديد ، وإلا فان ذاك الشعب سيفني ويضمحل ، او يكون لقيطاً .

فخلاصة القول هي أننا يجب أن نتعلم اللغة العربية ، فاذا لم نتعلمها ، فلن نبقى مسلمين ، ولا ايرانيين . في مقالات (محيط الطباطبائي) (حفظه الله ، فهو رجل فاضل وعالم) نقرأ مواضيع جيدة جداً أحياناً . يذكر إن أحد الذين تلقوا تربيتهم في الخارج كتب مقالتين في جريدة اطلاعات يقول فيهما إن علينا أن نخرج اللغة العربية من اللغة الفارسية ، وأن كلستان سعدي الذي يدرسه الأطفال في المدارس يجب ألّا يتعلمه الأطفال ، لأن هذا الشخص سيء التربية ، ويفسد أخلاق الطلبة . لماذا ؟ لأنه يقول : الكذب الأبيض خير من الصدق المفسد ، وأن هذا تشويق للصغار على الكذب . عجيب ! إن سعدي المسكين يورد قصة ، وهو بنفسه يشرحها ،

بشأن الكذبة البيضاء ، لا كذبة المنفعة ، فثمة كذبة للمنفعة الشخصية ، وأخرى للمصلحة العامة .

يقول سعدي : إنه جيء برجل أمام الملك ، فأمر باعدامه . فأخذ الرجل ، وكان بريئاً ، يسب الملك ويشتمه . فسأل الملك : ماذا يقول ؟ فأجابه وزير محب للخير قائلا : إنه يقول : والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس . إلا أن أحد المفسدين من الوزراء الحاضرين . من الصادقين المذكورين ، قال : لا يجوز الكذب في حضرة الملك . علينا نحن الوزراء أن نصدق القول دائما . إن هذا الرجل يسب الملك ويشتمه . ولكن الملك كان حصيفاً عاقلا ، فقال : إن الكذبة البيضاء التي قالها هذا الوزير لمصلحة عامة ، أفضل من صدقك المثير للفساد . فالكذب الأبيض خير من الصدق المفسد .

واليوم حقاً ، في كل مكان بريء يريدون قتله . هذا بريء يمر بهذا الزقاق ، فيسأل عنه : هل مر فلان من هنا ؟ وبما إنني لا أكذب قط ، أقول : نعم ، مر من هنا . أي اذهب واقتله . لم ينبغي ألا نكذب ؟ لأن ذلك من مصلحة البشر ، ولكن اذا اقضت مصلحة أعلى ، أي إذا كان الخيار بين أن نصدق أو أن نكذب لننقذ بريئاً من الموت ، فلا شك إننا يجب أن ننقذ البريء .

كان السيد محيط قد كتب مرة أن الأنكليز عندما دخلوا الهند ، أمروا ، من جملة اوامرهم ، بعدم طبع كلستان سعدي ، وكان عذرهم في ذلك هو ما قيل بأن سعدي يسيء الى التربية ، وأنه يقول إن الكذب الأبيض خير من الصدق المفسد . عندما حققوا في الأمر وجدوا أن أولئك قد فعلوا ما ارادوا ، لأنهم رأوا أن سعدي يقول في بداية كلستانه :

« أي كريمي كه أز خزانة غيب كبر وترسا وظيفة خور داري دوستان راكجا كني محروم تو كه بادشمنان نظر داري »

« أيها الكريم الذي ترزق من خزائن الغيب الكافر والمسيحي كيف يمكن ان تحرم المحبين وعينك ترعى الأدعاء »

لقد حسب الأنكليز حسابه ، فرأوا أنه اذا وعى الطفل الهندي (اذ كانت الدراسة بالفارسية) وتعلم في المدرسة أن (ترسا) تعني المسيحي ، فهذا يعني أن الأنكليز المستعمرين هم أعداء الله ، فيربون فيه بذور العداء للأنكليز ، ثم يقولون : لماذا يأتي أعداء الله فيحكموننا ؟ إلا أن الانكليز لم يمنعوا سعدي بهذا العذر ، بل لقوله إن الكذب الأبيض خير من الصدق المفسد .

و هنا ينتهي ما أردت قوله ، وأرجو من المحبين

والأصدقاء أن يسعوا بالدرجة الأولى كفريضة دينية ، وبالدرجة الثانية كواجب وطني ، للحفاظ على الثقافة الأسلامية الفارسية ـ الى تعلم اللغة العربية تعلماً متقناً ، لكي يستطيعوا الأستفادة من النصوص العربية ، ولقراءة القرآن ونهج البلاغة ، ودعاء أبي حمزة الثمالي ، والتلذذ بها ، ولأقامة الصلاة حتى يلتذوا بها مع التوجه القلبي ، ولكي يفهموا ما يقولون في القنوت . وأرجو التوفيق للجميع والسلام .

تفسير سورة الانشراح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْـرَحْ لَكَ صَـدْرَكَ . وَوَضَعْنا عَنْـكَ وِزْرَكَ . ٱلَّـذي أنقضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَـا لَـكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْـرَا إِنَّ مَعَ ٱلعُسْـرِ يُسْـراً . فَـإِذَا فَـرغتَ فَـانْصَبْ . وَإِلَى رَبِّـكَ فَارْغَبْ .

إن سورة الانشراح المباركة ، التي تخاطب شخص الرسول (ص) تتألف من ثلاثة اقسام . القسم الأول : تذكير وامتنان ، تذكير بألطاف الله وعناياته بالرسول الكريم نفسه . والقسم الثاني : نوع من التعلم ، اي العناية وبيان علة من العلل . والقسم الثالث : استنتاج النتيجة . في سورة (الضحى) التي تأتي قبل سورة الانشراح ثلاث آيات هي في سياق واحد مع الآيات الأربع لسورة الأنشراح . تلك الآيات الثلاث هي :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ .

أي تذكر ما تفضل به الله عليك من قبل . ثم تأتي الآيات :

﴿ فَأَمَا ٱليتيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَا ٱلسَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَا

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

فكأن آية ﴿ الم نشرح لك صدرك ﴾ معطوفة على ﴿ الم يجدك يتيما فآوى ﴾ لذلك فان بعض المفسرين من الشيعة والسنة ، يدعون أن سورة الأنشراح وسورة الضحى سورة واحدة ، لا سورتان منفصلتان . بل لقد ورد في بعض الروايات أنه في الصلاة الواجبة تجب قراءة سورة كاملة بعد سورة الفاتحة . أهل السنة لا يشترطون هذا الشرط ، ويكتفون بجزء من سورة ، حتى وان كانت آية واحدة . ومن المألوف أن تشاهدوا أئمة صلاة الجماعة في المسجد الحرام أو في مسجد النبي ، كثيراً ما يبدأون من منتصف احدى السور ، ويقرأون سبع آيات أو ثماني أو عشراً ، وينتهون بها . أما في فقه الشيعة فتجب قراءة سورة كاملة بعد الفاتحة . لذلك يحتاط الفقهاء في قراءة سورة الأنشراح وحدها ؛ أو سورة الضحى وحدها . وكذلك الأمر بشأن سورة الفيل وسورة قريش ، اذ يقال إنهما سورة واحدة ، لا سورتان ، إلا أن هذا لا يرتبط بالتفسير ارتباطاً كبيراً .

﴿ الم نشرح لك صدرك ﴾ . إنني أوكد كلمة الشرح لكي نعرف معنى (شرح الصدر) . لقد وردت هذه الكلمة في القرآن في صور مختلفة . من ذلك إن القرآن يقول عن موسى بن عمران إنه عندما بعث وقيل له : انك

رسول الله ، اذهب الى فرعون . . . كان أول طلب له من الله ان قال :

﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ .

ونقرأ في مكان آخر :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلاسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في ٱلسَّمَاءِ ﴾ .

كانت الآية الأولى تتعلق بشخص الرسول ، وآية ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ طلب موسى . فموسى يطلب من ربه أن يشرح له صدره . فشرح الصدر لا يختص بالرسول (ص) ، لأن موسى طلب الشيء نفسه من الله ، واستجاب له الله ، فيكون واضحاً أن ﴿ شرح الصدر ﴾ ليس مما يقتصر على الأنبياء ، فكل من اهتدى الى الأسلام ، وكل من أشرق نور الأسلام على قلبه ، يكون قد ﴿ شرح صدره ﴾ في الوقع . فما هو شرح الصدر هذا ؟

لا بد لنا أولاً ان نعرف معنى الصدر ، ومعنى الشرح . كلمة الصدر ، من حيث أصلها ، تدل على التجويف الصدري ، ولكن هل هذا هو المعنى المقصود في آية ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ؟ او في آية ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ ؟ او في آية ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ ؟ فهل يعني هذا إن عملاً مادياً يجري في الصدر ؟ من البديهي إن الأمر ليس كذلك ، بل هو القلب ، على اعتبار أن القلب موضعه الصدر . وحتى القلب قد جيء به هنا من باب الكناية لما يختص به القلب الحقيقي ، وهو روح الأنسان نفسه . فالمقصود لا يعني أن الله يشرح قلب الانسان ، بصرف النظر عن معنى كلمة ﴿ شرح ﴾ . اذن ، فالصدر ، مهما يكن ، فالمقصود به شيء روحي ، شيء معنوي ، وليس شيئاً مادياً ، جسمانياً .

والآن الى معنى كلمة (شرح) . يرى المفسرون عموماً ان (شرح الصدر) تعني « سعة الصدر » . وهذا تعبير وارد في اللغة العربية ، وقد ورد في الحديث : آية الرياسة سعة الصدر » ، فمن الواضح إن المقصود بسعة الصدر هو اتساعه وكبره ، ولكن من الواضح هنا أيضاً إن القصد ليس القول بأن من كان صدره واسعاً كبير الحجم

يكون متسما بسعة الصدر ، او اذا كان المرء نحيفاً صغير الجسم يكون محروماً من « آية الرياسة » .

سعة الصدر تعني كثير التحمل والصبر . فهي كناية عن قدرة المرء على التحمل والصبر . أي إذا أراد شخص أن يصبح رئيساً ، كثير التعامل مع الناس ، يدير شؤونهم ، فعليه أن يكون واسع الصدر ، قادراً على التحمل . فالشخص الذي لا يتسع صدره ، السريع التأثر والتهيج ، الثائر الأعصاب ، لا يمكن أن يصبح مديراً ولا رئيساً ، يدير جماعة من الناس ، مهما يكن نوع هذه الأدارة ، خذ مديراً لمدرسة ، او معلماً في الصف يدير التلاميذ ، فاذا لم يتسم بسعة الصدر ، لم يستطع ادارتهم . والرجل رب الأسرة اذا أراد أن يدير شؤون أسرته الداخلية ، يلزمه أن يكون واسع الصدر . وكلما كان مجال ادارة الرجل أوسع ، تطلب منه ذلك صدراً أوسع ، وحلماً أكبر . وهذا هو على وجه العموم المعنى الذى يفسر به المفسرون هذه الكلمة ، اذ يقولون ان الله قد منَّ بها على الرسول الكريم ، فهو يذكره بهذه النعمة ، نعمة الصبر الوافر ، نعمة سعة الصدر .

ولكن يبدو ان بين « شرح الصدر » و« سعة الصدر » بعض اختلاف ، فحيثما يكون « شرح الصدر » تكون « سعة الصدر » . ولكن ما كل « سعة صدر » تشمل

« شرح الصدر » .

لم يكن القرآن قاصراً عن قول ﴿ الم نوسع لك صدرك ﴾ ، ولكنه لم يقل ، بل قال : ﴿ الم نشرح لك صدرك ﴾ . فما معنى الشرح ؟ إنه هو هذا المعنى الدارج الآن . فقد يؤلف شخص ما كتاباً شديد التلخيص ، بحيث لا يتمكن القاريء من ادراك كل الجزئيات التي يقصدها المؤلف ، فينبري شخص آخر لشرح هذا الكتاب ، كما لو كان يفتحه ويوسع ما بين معانيه ، حتى إنه قد يشرح السطر الواحد في صفحة كاملة . وهذا عمل المتضلعين المتعمقين .

ألف الخواجة نصير الدين الطوسي كتاباً بعنوان « تجريد الاعتقاد » يبحث في علم الكلام ، ويتألف من قسمين : « تجريد المنطق » و« تجريد الاعتقاد » ، والمؤلف رجل ضليع في نظريات علماء الكلام من جهة ، وضليع كذلك في النظريات الفلسفية من جهة أخرى ، وفضلا عن تمكنه من هذين الموضوعين فان له نظرته الخاصة أيضاً . يتناول المؤلف في كتابه هذا أمهات القضايا الفلسفية وقضايا الكلام ، في عبارات مختصرة وجمل موجزة . ثم جاء بعده تلميذه ، العلامة الحلي ، الذي لا يقل عنه نبوغاً ـ وان كان هذا أقرب الى الفقه من اقتراب

أستاذه الى الفلسفة والرياضيات والعلوم الأخرى ـ فشرح كتاب أستاذه تحت عنوان « كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد » ، وهو لم يسهب كثيراً في الشرح ، الا أنه ألقى الضوء لأول مرة على مضامين الكتاب ، فقد كان العلامة الحلي من العرب ، والطوسي من الايرانيين .

ثم جاء أناس كثيرون بعد ذلك حتى اليوم ، بعد أن مضى على تأليف « تجريد الاعتقاد » أكثر من سبعة قرون ، وعلى الأخص الى ما قبل ثلاثة قرون او أربعة ؛ اي قبل مجيء ميرداماد وملاصدرا ، فحاولوا جمع ما تناثر من أفكار الخواجة الطوسي ، وكتبوا له الشروح العديدة ، والحواشي الكثيرة ، ثم جاء من كتب الشروح على الشروح ، والحواشي على الحواشي بحيث اننا قلما نجد كتاباً في دنيا الأسلام أثير حوله هذا القدر من الكلام . فكلما ظهر عالم أخذ يبحث في هذا الكتاب ، ولعل عدد الذين كتبوا له الشروح والتعليقات والحواشي يبلغ المئة . كان هؤلاء يقولون إنه لولا قيام هذا العربي الشيعي « ويقصدون العلامة الحلي » بشرح كتاب « تجريد الأعتقاد » ، بعد أن شرحه علماء السنة أيضاً ، لما عرفنا الى أين تقصد القافلة بنا . ويطلق على هذا العمل كله اسم الشرح .

وأحياناً نرى بيتاً من الشعر يستغرق كتاباً لشرحه ،

ولكن لا كل الشعر ، إذ ليس كل شاعر قادراً على قول بيت من الشعر يحتاج لشرحه الى كتاب ، الا أن أمثال هؤلاء الشعراء موجودون ، مثل مولوي وحافظ ، فهؤلاء أناس واسعو الاطلاع متمكنون من آداب زمانهم ، يجمعون في أيديهم زمام القول والبيان . خذوا حافظاً مثلا . لكم لاحظتم أن العديد من العلماء الأعلام بحثوا في بيت واحد من شعره ، وكتبوا المقالات الطوال يشرحونه بها . كذلك كتبت فصول حول بعض أشعار مولوي ، ونشرت بحوث عنها ، يشرحون فيها مقاصد الشاعر .

حيرت اَنْدَر حِيرت آمد در قِصَصْ
بيهوشي خاصكان اندر أخص
عقل اول راند بر عقل دُوُمْ
ما هي از سر كُندِه كردد ، ني زدم

او ربما قيل « ما هي از سر كندِه كردد ، ني زدم » ، فأيها الصحيح ؟ ثم ما هو المقصود ؟ هذا دله سرح . إن القضية ، لغوياً ، تشبه عمل الجزار حين تناوله قطعة لحم ليشرّحها ، واذا به يُعمل سكينه فيها تقطيعا وتشريحاً ، ويجعل منها شرائح خفيفة ، بحيث أنها تكاد تكفي لتغطية أرض الغرفة ، اي أخذ شيء مشدود ومضغوط ومتراص ، لكي نفتحه ونشرحه .

إن مسألة ﴿ شرح الصدر ﴾ مسألة روحية ونفسية . وما من شيء في العالم أحوج الى الشرح من روح الأنسان .

أتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

فخطاب الله الى رسوله بأنه قد شرح له صدره لا يعني إنه وسّعه .

نحن نقول إن الدار صغيرة ، ومساحتها ١٠٠ متر ، ثم نشتري مئة متر أخرى تضيفها إليها ، ونقول إنك قد وسعت دارك . على كل حال ، حيثما وجد الشرح وجدت التوسعة أيضاً . ولا يلزم أن يكون الشرح حيثما تكون التوسعة . فهو لا يريد أن يقول إننا وهبنا روحك سعة الصدر ، بمثلما يوسع المرء داره ، او إننا زدنا في سعة هذا الأناء ، إنما القول يدور على أننا فتحنا هذا الاناء الكبير جداً بعضه عن بعض ، فتحنا لك صفحات كتاب الروح المتراصة بعضها فوق بعض . ولكن هل في شرح الصدر سعادة للانسان أم لا ؟ لذلك تقول الآية :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » أي إذا أراد الله أن يهدي امرءاً فانه يفتح صدره للاسلام ،

لحقائق الاسلام . وفي الحقيقة إن الآية « ألم نشرح لك صدرك » تعني « ألم نشرح لك صدرك للتوحيد » و « ألم نشرح لك صدرك للاسلام » ، اذ ربما يكون صدر أحدهم قد فتح للكفر ، وقد تجد انساناً جاهلاً لم يشرح صدره لا للاسلام ولا لغير الاسلام ، ولا للكفر . الويل لمن يشرح صدره ، ويثار فيه نوع من الغليان الروحي والمعنوي ، للكفر . او أهل يمكن أن تكون للمرء سعة صدر في الكفر ؟ اجل يمكن . اي إن رأس المال هذا يمكن أن يستثمر في هذا الاتجاه . لقد قرأت في احدى الصحف أن تيمور تاش قال إنه قد أخبر الميرزا طاهر تنكابني بأنه قد وجد سبعين دليلاً على عدم وجود الله ! وأن الميرزا قد أجابه بأنه أيضاً لديه دليل واحد على عدم وجوده ، في الوقت الحاضر . فقال له : قل ما هو دليلك ؟ فقال : دليلي هو أنك ما تزال موجوداً . فلو كان الله موجوداً لصفي حسابه معك . ولكن لم يمض وقت طويل حتى سقط هذا الرجل وسجن ، وانقطع رجاؤه في كل شيء .

لاحظوا هؤلاء الذين يقولون إن لديهم الدليل ، انما الذي لديهم كله غرور ! هذا الشخص نفسه كان متزوجاً من افرنجية ، فكان يسمح لها بالحضور . ثم وصل به

الأمر الى أن يقول لها إن في جنوب المدينة رجلاً يكتب الأدعية ، فاذهبي اليه وأتيني منه بأحد الأدعية . هذا هو نفسه الذي كان يقول إن لديه سبعين دليلاً على عدم وجود الله ، ولكنه أخذ فيما بعد يبحث عمن يكتب له الدعوات . هذا شرح الصدر للكفر .

والفخر الرازي . انا بالطبع لا اريد ان أتجاسر فأضعه في مصاف أشخاص من هذا القبيل ، ولكنه مع ذلك لم يكن من رجال الحقيقة حقاً . من ذلك مثلا إنه قد قام بالشرح أيضاً ، وأي شرح ! فهو عندما يتناول موضوعاً ، مهما يكن ، في علم الكلام ، او الفلسفة ، او التفسير ؛ يأخذ بتفكيكه . ففي التفسير ، قام بتفسير احدى الآيات ، وذكر ان لهذه الآية عشرين وجهاً ، وراح يسردها واحداً فواحداً ، الأمر الذي لم يخطر حتى للجن . ثم هو عندما يصل الى مرحلة الاختيار ، يكون كمن جاءته ضربة من الله ، اذ أنه يورد نظريات تضحك الثكلى .

إن هذا الشخص قد شرح صدره ، ولكنه لم يكن مصحوباً بهداية من الله ، ولم يكن « على نور من ربه » . إن الانسان العادي لقادر على أن يرى الحقيقة من الوهلة الأولى ، بغير أن يجول بنظره فيما حوله . ولكن هذا وجد نفسه في مفترق أربعين طريقاً ، فأخذ يذهب هنا ،

ويذهب هناك ، ولكنه في النهاية لم يمش في الطريق الذي ينبغي له ، بل دخل متاهة مضلّة ، وليس كذاك الذي ذهب الى نجم الدين كبرى ، وكان من الفضلاء ، وقال له إنه يحس أن ما عنده ليس من العلم في شيء ، إنه تخيل وأفكار « ان قدرتي على التخيل كبيرة . أحس أنني لم اصل الى الحقيقة » .

ولهذا الرجل شعر كثير في ذلك . ثم طلب من نجم الدين ، قائلا : « اريدك ان تفعل شيئاً من أجلي . أن تصحح ما عندي ، أن تعطيني حقيقة جديدة » فقال له نجم الدين : « سأفعل ، ولكن على شرط واحد ، وهو أن تزيح عن صدرك هذه الأصنام ، وأن تنساها » فقال : « رضيت »، فقال له نجم الدين : « اواثق انت من نفسك ؟ » فقال : نعم : أستطيع ذلك » . ولكنه عندما جد الجد قال : لا طاقة لي على ذلك . ولهذا نقرأ في القرآن هذه الآية :

﴿ ولَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ آللَّهِ ﴾ .

وعليه ، فان شرح الصدر غير سعة الصدر . شرح الصدر هو إن الله يفتح روح الانسان المتضامّة على

بعضها ، ويلقي بنوره فيها . وهذا هو شرح الصدر للاسلام ، وهو شرح صدر آلهي ، حتى أنه أجرى على لسان شخص أمي أجل الحكم وأعظمها :

« مَنْ أخلَصَ للَّهِ أَرْبعِينَ صَباحاً جَرَتْ يَنابيعُ الحِكْمة مِن قَلْبِه على لِسانِه » .

فقوله تعالى :

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ يعني : ألم نفتح لك قلبك حتى فاضت منه الحكمة والحقيقة والعلوم ؟

يقول بعضهم إن لرسول الله حديثاً قال فيه إنه طلب من الله شيئاً ثم ندم عليه بعد ذلك ، وتمنى لو لم يطلبه . وكان الطلب يتعلق ببعض ما وهب الله لأنبيائه السابقين ، وبتلك التي وهبها له ، فنزلت هذه السورة : « الم نشرح لك صدرك » وهذا في الحقيقة بيان لنعمة شرح الصدر وانفتاحه ، فيفور فيه العلم والحكمة .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزرَكَ ﴾ .

أي إننا رفعنا عنك الحمل الذي يثقل عليك . وهذه نعمة الله الثانية . فما هو الحمل الثقيل هذا ؟ اذا ما وضعنا سورة الانشراح الى جانب تلك الآيات التي خاطب بها موسى ربه نجد أنها تصدق بعضها بعضا . لقد قال

موسى : ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ و﴿ يسر لي أمري ﴾ اي اجعل مهمتي سهلة . فما هي مهمة موسى ؟ مهمته الدعوة ، دعوة الناس وهدايتهم ، وهي مهمة صعبة .

﴿ ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ أي اجعل كلامي يسيراً ، يفهم الناس منه قصدي ، اي إنهم اذا فهموني وأدركوا ماذا أقول وإلى أين أريد أن أقودهم ، فهذا يكفي .

﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ فما معنى الوزير ؟ لقد استعملت هذه الكلمة مع الملوك استعمالاً كثيراً جعل معناها يقتصر على السائر خلف الملك والممثل لأوامره . إلا أن معنى الكلمة غير ذلك . إن معناها المعين ، اي الذي يعين غيره على رفع حمل ثقيل . أنتم أيضا لو أتيتم في محل عملكم بمن يساعدكم على تخفيف أعباء العمل عن كواهلكم ، يكون هذا وزيراً لكم . وهذا هو المعنى نفسه الذي وصف به الرسول الكريم (ص) علياً (ع) باعتباره وزيراً له ، اي إنه يساعده في حمل هذا العبء الثقيل ، ولذلك قال في حقه :

علي وَزيري ، وَوَصيي ، وَقاضي دَيني » .

كلمة « الوزير » مأخوذة من « الوزر » ، والوزر هو

الحمل الثقيل ، والزير هو الذي يساعد على رفع الحمل الثقيل .

والوزر ، باعتبارها تعني الحمل الثقيل ، تستعمل للدلالة على الاثم أيضاً ، لأن الاثم كالحمل الثقيل على الانسان . ولقد سبق ان قلنا مراراً إن من صفات الأثم أنه يثقل روح الانسان ، اي إنه يستفرغ قوة الانسان وطاقته ، فاذا مشى فكأنه يحمل ثقلاً على كاهله ، بخلاف طاعة الله ، فهذه تمنح القوة .

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾ .

إن من مميزات عمل الخير أنه يمنح القوة ، فالذي يفعل الخير يحس كأنه قد تغذى تغذية جيدة ، أو أنه قد زرقت فيه عقاقير مقوية . أما في حالة ارتكابه الاثم ، فيحس كأن حملا يثقل كاهله ، ويشعر بالرهق حتى في السير العادي .

فاذا اطلقت كلمة « وزر » على الاثم ، فذاك لأن الاثم حمل ثقيل، الحمل الثقيل الذي كان بعهدته، رسالته الى الناس، ودعوتهم، وهدايتهم. اذا أراد أحد أن يهدي الناس حقا، فليس أثقل منه من عبء. فاذا قال الله للرسول:

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ بعلي، فذلك هو الحق الواقع . اي إننا خففنا عنك هذا العبء بهذا الرجل الذي هو منك بمنزلة هارون من موسى ، فبه رفعنا عنك الحمل . أو لم يقل الرسول الكريم (ص) : « يا علي ، انت مني بمنزلة هارون من موسى » . وهذا من الأحاديث المتواترة عن الشيعة والسنة .

فقد روي أن النبي كان يصحب علياً في كل حرب يخوضها ضد المشركين ، ولكنه عندما عزم على التوجه الى حرب تبوك ، لم يأخذ علياً معه ، وذلك لأنها لم تكن حربا فعلية ، بل كانت حرباً استعراضية ، لاظهار قوة المسلمين وشوكتهم أمام شمال جزيرة العرب في سورية . فذهبوا وعادوا ، وكان النبي قد أبقى علياً بمكانه في المدينة ، فأظهر علي إنه كان يفضل لو ذهب معه ، فقال الرسول « يا علي الا تحب ان تكون خليفتي ، فأنت مني بمنزلة هارون من موسى » باختلاف واحد ، هو « إلّا أنه لا نبي بعدي » . وهذا يعني إن هارون كان نبياً ، إذ أنه كان بمقدوره أن يكون نبياً بعد موسى . ولكنك لا تكون نبياً لأنه لا نبي بعدي ، فكل ما بيني وبينك من روابط هي ما كانت بين موسى وهارون . فعلي وزير الرسول (ص) .

عندما أعلن النبي دعوته كان الأمر صعباً ، ثم بعد

ذلك ، في المدينة ، عندما أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، خف الأمر ، وأزيح الثقل عن كاهل الرسول . كانت مهمته قد انتهت .

﴿ الذي انقض ظهرك ﴾ .

اي ذلك الحمل الذي أخرج الأصوات من عظام ظهرك بمثلما يضع امرؤ ثقلاً على سقف خشبي ، فيصدر الصوت من الخشب حتى يكاد ينكسر . يريد الله أن يقول إن الحمل كان من الثقل بحيث إن عظام ظهرك أخذت تفرقع ، فازحنا عنك هذا الثقل ، وكنت موفقا .

﴿ ورفعنا ذكرك ﴾ .

لقد أنزلنا حملك ، ولكننا رفعنا اسمك ، وجعلنا صوتك يعلو ، وقرنّا اسمك باسم الله ، فعندما ينادي المنادي : اشهد الا إله إلاّ الله ، يتلوه مباشرة :

اشهد ان محمداً رسول الله .

الى هنا تتناول الآيات النعم الالهية ، ثم يبينها بصورة فلسفية . الى هذا الحد كانت الآيات شخصية : كنت كذا ، وفعلنا كذا . ثم يضع الموضوع في صيغة فلسفية ، ليصل منها الى النتيجة .

﴿ فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسرا ﴾ .

المعنى الكلي هو أن الصعوبة تأتي ومعها السهولة ، والسهولة في الصعوبة . وتشير الآيتان الى مهمة النبي : كم كانت صعبة في البداية ، وكم كان حملك ثقيلا حتى فرقعت عظام ظهرك . وكان العدو يسعى لأن يمحو اسمك محواً ، فصار العكس . هذا هو قانون الله .

﴿ فان مع العسر يسراً ﴾ مع الصعوبة سهولة ، وإن الصعوبة تليها السهولة ، نهاية ظلام الليل صباح أبيض ، ولكن ماذا يعبر القرآن عن ذلك بقوله إن الصعوبة مع السهولة ؟ المقصود هو القول أن ليس هناك تعاقب ، اي ليس هناك أمر صعب ، ثم يعقبه امر سهل بالتناوب ، ليس الأمر كذلك ، بل إن السهولة وليدة الصعوبة ، والصعوبة أم السهولة . اي إنكم اذا أردتم بلوغ اليسر والرفاه ، والسعادة ، فلا يتاح لكم ذلك ما لم تعبروا طريق الشدائد . إنه لتعبير عجيب ، وهي كلية عجيبة . فعلى الرغم من أن البداية تخص شخص الرسول ، والنعم التي أنعم الله بها عليه ، شرح صدره ، ورفع عنه الثقل ، ورفع اسمه ، ولكن على اي قانون ؟ أعمال الله كلها تجري على وفق القوانين والسنن ، فما هذه القوانين والسنن ؟

﴿ فان مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ .

هذا هو القانون . ونقرأ في سورة السجدة :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ .

أي إننا عينا منهم قادة يرشدون الناس بأمرنا . لماذا ؟ لأنهم صبروا في الشدائد ، وآمنوا بآياتنا . الايمان مع العمل في الشدائد .

وقد ورد هذا أيضا في آيات أخرى مثل سورة آل عمران :

﴿ وَكَأَيِّ مِنْ نَبِي قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيراً ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا صَبَرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا استَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاّ أن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَإِسْرَافَنَا في أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وانْصُرَنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ . فَآتاهم اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ .

أي : كم في طول التاريخ من أناس الهيين ، يعبدون الله ، وكم من أنبياء قاتل أولئك معهم في سبيل الله ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ﴾ أي كم تحملوا من

الشدائد ، ولكنهم لم يستول عليهم الوهن ﴿ وما ضعفوا ﴾ وظلت معنوياتهم عالية ، ﴿ وما استكانوا ﴾ لم يظهروا الجزع والخضوع والذل ، ولم تتحطم نفوسهم ، ولم يتزلزل إيمانهم ، بل لجأوا الى الله ، واستعانوا به ، ولم يقولوا شيئاً سوى الطلب من الله أن يملأهم صبراً واستقامة في سبيله ، وأن ينصرهم على الكفار . ولذلك ، ولما تحملوا من المحن ﴿ آتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴾ .

في إحدى خطب أمير المؤمنين في نهج البلاغة ، يلوم أصحابه على أن الناس أخذت تظهر عليهم حالة من الكسل والتهاون .

ولكننا نحن أصحاب علي ، ونحن أعوانه ، او ليس علي صهر الرسول ؟ أو ليس وصيه ؟ أو ليس خليفته بالحق ؟ فاذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن ننتصر على جيش معاوية . نعم ، ما دمنا من أتباع علي ، وجب أن ننتصر على جيش معاوية .

ولكن علياً كان يقول : ليس الأمر كذلك إذ ليس من سنة الله أننا ما إن بايعنا علياً حتى وجب أن ننتصر ، وذلك لأننا ، على الرغم من أننا بايعنا محمداً وآمنا به ، فان الله لم يمن علينا بالنصر بهذه السهولة : ﴿ لقد كنا مع

رسول الله نقتل آباءنا وأعمامنا ﴾ إذا وقف في طريقنا أحد منهم . ولكن تحملنا المشاق والشدائد ، ولكم صادف أن قابلنا العدو وجهاً لوجه في ميادين الحرب ، فتصارعنا كبعيرين ، فنغلب حيناً ، ونغلب حيناً . فلم يكن الأمر كما تظنون ، بأننا لكوننا نسير في ركاب الرسول ، ما إن نجرد سيوفنا حتى يفنى الأعداء جميعاً . ولكننا خرجنا من بوتقة الامتحان بنية صادقة .

ويضيف الامام علي قائلا : لقد ظهرت نيتنا الصادقة في أعمالنا ، لا في الادلاء بالشهادتين . وعندئذ أيدنا الله بنصر من عنده . وهذا هو معنى الآية ﴿ فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ فيا أيها الرسول لقد عانيت كثيراً ، وها هي ثمرات العناء .

ثم نأتي الى أمر عجيب آخر :

﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾ .

هل يعني هذا أنك بعد أن فرغت من ذلك ، ورفع الثقل عن كاهلك ، اذهب ونم مستريحا ؟ لئن فعلت ذلك ، فأنت قد جلبت على نفسك سوء الحظ ، إذ أن سوء الحظ يأتي من التعود على النوم والاستراحة والرفاهية ، وما من أمر أشد عداءً للانسان من الرفاهية . ﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾ اذا فرغت من كل ذلك ، فالق

بنفسك في التعب والنصب ، ابحث عن الشدائد ، ولا تعوِّد نفسك على الراحة .

لنفرض أن رجل الله لم يجد أمامه من المشاكل الاجتماعية ما يشتغل بها ، فهل زالت عنه شدائد العبادة ؟ عندما لم يكن للنبي من المشاكل الاجتماعية ما يشغله ، فهل كان يقتضي الليل في النوم حتى الصباح ؟ كلا . ما كان ليستريح . ﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾ إلق بنفسك في المتاعب الحقة ، ولا تركن الى الراحة فهي عدو الانسان .

﴿ فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب ﴾ .

تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ

إِنَّـا اَنزَلْنَـاهُ في لَيْلَةِ القَدْر . وَمَـا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ. لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنَـزَّلُ المَلاَئِكَـةُ وَالرُّوحُ فِيهَـا بِاذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلاَمٌ هِيَ حَتّى مَطْلَعَ الفَجْرِ .

يدور حديثي حول سورة القدر[1] إنها سورة من تلك

---

(١) القضاء والقدر ضربان : ضرب قابل للتبديل ، وضرب غير قابل للتبديل . ففي أدعية شهر رمضان نقرأ طالبين من الله أن يقدر لنا قدراً من الضرب الذي لا يتغير ولا يتبدل . من هذا يتضح أن هناك قدرين :

ـ . القدر الذي يمكن تبديله .

ـ القدر الذي لا يمكن تبديله .

والدعاء من أرفع مطاليب البشر ، إذ أن الانسان يريد بالدعاء أن يغير المقدرات ، أي إنه يريد أن تؤثر الأرض في السماء ، والطبيعة في ما وراء الطبيعة . نحن لا نعلم أي المقدرات يمكن تغييرها وأي المقدرات لا يمكن تغييرها ، ولكننا ندعو دعاءنا حتى نغير القدر الذي يمكن تغييره ، فاذا لم يكن من النوع الذي يمكن تغييره ، نكون على كل حال ، قد دعونا ، والدعاء عبادة ، وللدعاء أثران :

أ ـ الدعاء بحد ذاته عبادة تقرب الأنسان من الله .

ب ـ اذا لم يتحقق الدعاء فعلا ، فانه مستجاب ، لأن أصل الدعاء يعطي أثره ، أما تحقق المطلوب أو عدم تحققه فأمر آخر .

السور ذوات النغمات الخاصة ، وفيها موضوع مثير للتساؤل .

فلنتدبر الآن في هذه الآيات ، وفي آيات أخرى ، لنرى ما يستفاد من هذه السورة الصغيرة . ونبدأ بشرح بعض الألفاظ .

يتضح من آية ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ أن هذه الليلة عظيمة الشأن عند الله ، وان البشر لا يقدر على ادراك أهميتها ، فهي ليلة جليلة وعظيمة ، حتى أنها ﴿ خير من الف شهر ﴾ حيث الملائكة والروح تنزل فيها بأمر من ربها ، و﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ .

النقطة الأولى هي أن القرآن قد نزل في ليلة القدر ، غير أن هذه السورة لا تعين أية ليلة هي ليلة القدر هذه ، إلا هناك آية أخرى في سورة البقرة نقول :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدَىً لِلنَاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَىٰ وَالفُرْقَانِ ﴾ .

فهو يصف شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن . اذن ، ليلة القدر هي احدى ليالي شهر رمضان ، بدلالة الآية الأولى من سورة القدر ، وهذه الآية من سورة البقرة .

هنالك آية أخرى من سورة الدخان ، فيها توضيح آخر لليلة التي نزل فيها القرآن . وتلك الآية هي :

﴿ حم وَالكِتَابِ المُبِينِ . إنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ وَإنَّا كُنّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْر حَكِيمٍ ﴾ .

أي إن ليلة نزول القرآن ليلة مباركة ، وإننا نحذر وننذر بالخطر ، وهي ليلة تحدث فيها أمور .

وعليه فان الليلة التي نزل فيها القرآن ، بحسب آية سورة البقرة ، هي من ليالي شهر رمضان ، وبحسب هذه الآية ، هي ليلة مباركة تجري فيها أمور ، اي إنها ليلة التقدير ، ليلة توضع فيها سلسلة من التقديرات . وبأخذ آية ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بأمر ربهم من كل أمر ﴾ بهذا الخصوص ، يتضح أن الليلة من ليالي الله التي تجري فيها أمور .

ثمة نقاط لا بد من البحْث فيها :

١) يتبادر الى الذهن هنا سؤال . فاذا كان نزول القرآن في ليلة القدر ، وليلة القدر من ليالي شهر رمضان ، أفلا يعني هذا إن النبي قد بعث في ليلة القدر ؟ فلماذا نحتفل بالمبعث في اليوم السابع والعشرين من رجب ، مع أن القرآن يصرح بنزوله في رمضان ؟

هنا لا بد أن نشير الى موضوع ، وإن لم يكن جواباً على هذا السؤال ، إلا أننا لا بد أن نشير اليه ، وهو إن للقرآن نزولين : النزول الأجمالي ، والنزول التدريجي ، أو التفصيلي . فالنزول الأجمالي هو النزول غير الزماني ، والنزول التدريجي هو النزول التفصيلي الزماني .

وكلمة « نزول » بحسب اللغة العربية ، ترد في موضعين اثنين : الأول من باب إفعال (إنزال) « إنا أنزلناه » ، والآخر من باب تفعيل (تنزيل)[1] . علماء اللغة العربية يقولون إن هناك فرقاً بين هاتين الصيغتين من حيث المعنى . فأنزلناه ترد حيث يقصد النزول الكلي دفعة واحدة ، وتنزيل ترد حيث يكون التنزيل تدريجياً . فالقرآن ، اذن ، إنزال وتنزيل .

ففي هذه الآيات : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ و﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ و﴿ حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ يأتي الفعل من إفعال ، وهي كلها تشير الى نزول اجمالي دفعة واحدة ، غير مشروط بزمان ، نزل على محمد (ص) ، قبل تنزيله عليه

---

(١) كما في الآية ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ (السجدة : ٢) ـ المترجم .

بهيئة روح ، لا بهيئة آيات وكلمات وألفاظ وسور . وبعد أن استقرت تلك الروح في الرسول الكريم ، وهي روح القرآن ، نزل القرآن مرة أخرى بهيئة ألفاظ وكلمات وسور هذه المرة .

إن لدينا بهذا الشأن روايات كثيرة ، فقد ورد عن الأئمة الأطهار مراراً أن القرآن قد نزل على الرسول الكريم بهيئتين : بهيئة اجمالية واسعة ودفعة واحدة ، وبهيئة تفصيلية تدريجية زمانية . فذلك النزول الأجمالي الذي نزل على الرسول دفعة واحدة ، هو النزول الذي حدث في شهر رمضان . في ذلك الوقت لم يكن الرسول قد بعث بعد . بعثة الرسول تبدأ منذ أن نزل جبرئيل يحمل الى الرسول القرآن والروح والحقيقة ، في صورة ألفاظ وكلمات . ذلك هو زمان بعثة الرسول . وهو ما حصل في شهر رجب ، ودام ٢٣ سنة .

هنالك لفظتان لكتاب الله : القران والفرقان ، كما جاء في سورة الفرقان :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ الفرقان من مادة « فرق » أي الفصل والتفريق . والمقصود هو إننا أنزلنا القرآن مفرقاً ، مجزأ ،

لكي تقرأه على الناس تدريجياً .

يرى بعضهم أن لفظة « قرآن » تطلق على كتاب الله مجموعاً ، وتطلق عليه لفظة « فرقان » اذا قصدت أجزاؤه وتفاصيله ، كما نزلت آياته وسوره .

إن ما ذكرناه يتعلق بنزول القرآن ، إن كان في شهر رمضان أم في شهر رجب .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ .

أولا ، لماذا أطلق على هذه الليلة اسم ليلة القدر ؟ أهو لانها ليلة التقدير ، الليلة التي تعين فيها مقدرات الناس ؟ تلك الليلة الوحيدة في السنة حيث يكتب لكل امرىء ما قدر له ، ام إن معنى القدر هو التقدير والتثمين ؟ أي الليلة الثمينة ذات القدر . على كل حال ، حتى لو أخذنا المعنى الثاني ، فانها عالية القدر باعتبار المعنى الأول ، إذ يقول بعد ذلك إنها خير من من ألف شهر .

ثم هناك مسألة تطرح نفسها بخصوص الزمان والمكان ، هل إن أجزاء الزمان وأجزاء المكان لها قيمتها بحد ذاتها ، وبصرف النظر عن ارتباطها بحدث معين ؟ الواقع إن أجزاء الزمان ، من حيث كونها أجزاء زمان ، لا

يختلف جزء منه عن الجزء الآخر بشيء . أي إن درجة وجود جزء واحدة لكل الأجزاء ، فلا فرق بين جزء من الزمان وجزء آخر ، ولا يكون جزء أفضل من جزء ، كأن يكون جزء فضيلا وآخر غير فضيل .

أما الأجزاء المكانية ، أي الحيز المكاني من الأرض ، فقد يكون هناك فرق بين أرض وأرض ، إذ أن أجزاء المكان ليست ببساطة أجزاء الزمان ، فهناك فروق بينها ، ولكنها فروق مادية لا معنوية ، فما معنى هذا ؟ يعني إنه إذا كانت الأرض سبخة ، لم تعط حاصلاً ، واذا لم تكن سبخة ، أعطت حاصلاً وافراً .

أما من حيث فائدة البشر ، فارض تكون وافرة البركة ، وآخرى تكون سبخة عديمة العطاء ، فهذا مكان فيه بركة ، وآخر لا بركة فيه . فالأرض المعطاء تعدل عند الزارع مئة ضعف من أرض لا خير فيها . فاذا وهبت مزارعاً أرضاً ملحاً ، فما نفعها له ؟ ولكنك اذا وهبته هكتاراً واحداً من أرض خصبة ، فقد يعتاش منها سنته . وهذا أمر مادي ويرتبط بحياة الانسان . فماذا عن الجانب المعنوي ؟ فهل في الأرض بحد ذاتها اختلاف من حيث المعنويات ؟ أي بقطع النظر لعن ارتباطها بأي حدث او واقعة ، وقبل أن يوجد أي إنسان في العالم ، فهل يكون

لقطعة أرض فضل على أخرى ؟ فمثلا ، هل إن أرض مكة او الكعبة ، قبل أن يخلق بشر على وجه الأرض ، وقبل أن يظهر إبراهيم وإسماعيل كانت تمتاز بشيء على أية قطعة أرض أخرى ؟

الجواب هو أن ليس لأجزاء الزمان ، ولا لأجزاء المكان ، بذواتها ، أي اختلاف معنوي فيما بينها ، فليس ثمة أرض مباركة ، ولا أخرى خبيثة (معنوياً) . أجزاء الأرض كلها متساوية . غير أنها قد يتغير حالها ، لأمر طارىء ، فتصبح مباركة ، كقطعة أرض متروكة ، ثم تبنى مسجداً ، فتصبح معبداً ، وتكون لها سلسلة من الآداب والفروض الخاصة ويكون المكان مباركاً . لماذا ؟ لأننا جعلناه مسجداً . كذلك البلدان . لا ريب إن الله يعلم منذ الأزل إن الأرض الفلانية ستكون مباركة لسبب ما . إن معرفة الله بأن الأرض الفلانية ستكون مباركة شيء ، وأن الأرض بذاتها مختلفة شيء آخر . فالكعبة ، منذ إبراهيم ، بل لعلها منذ آدم ، كانت المنطقة التي اختيرت لتكون مسجداً يعبد فيه الله الأحد . فهي بالاضافة الى كونها مسجداً ، تسمى بيت الله أيضاً . فالاحترام الذي تحظى به الكعبة يفوق احترام أي مسجد آخر . إن مسجداً ما ينظر اليه باحترام أكبر لأن ولياً من أولياء الله

قد أقام الصلاة فيه . فمساجد العراق مثلا كلها مقدسة ، إلا أن مسجداً واحداً يفوقها قداسة لأن الأمام علي (ع) قد صلى فيه ، أو خطب فيه ، أو ألقى فيه موعظة . وكذلك المسجد الذي صلى فيه الامام زين العابدين ركعتين ، حيث يكون من المستحب أن نقيم نحن أيضاً فيه ركعتي صلاة ! وهذا يوصل الينا شرف العبادة وقيمتها .

فالكعبة اذن نالت شرفاً لم ينله مسجد آخر ولا معبد ، كمكان . والزمان كذلك أيضاً ، فالزمان يكتسب فضيلة بالانسان. فعندما يعين زمان للعبادة يأخذ الناس يتعبدون فيه ، أي إن الانسان يتعبد في الوقت الذي يتعبد فيه الآخرون . فكل هذه الدعوات والصلوات ترتفع الى السماء دفعة واحدة ، فيكون هذا فضيلة أخرى .

نعود الآن الى ﴿ ليلة القدر ﴾ فبحسب قول القرآن ، ليلة القدر هذه التي هي خير من ألف شهر ، هي ليلة واحدة في الحياة كلها ، وهي تلك الليلة التي نزل فيها القرآن على الرسول . يقول كثير من أهل التسنن إن الأمر ليس كذلك ، وإن ليلة القدر أكثر من ليلة واحدة ، تعود كل سنة طيلة حياة الرسول ، وعندما رحل الرسول رحلت ليلة القدر أيضاً (هذا كلام لا أساس له) .

اذن فليلة القدر مستمرة . هل كانت ليلة قدر للنبي ؟ يقول النبي ، نعم كانت ، وكل الأنبياء كانت لهم ليالي قدر . ترىَ هل كانت ليلة قدر قبل أن يوجد انسان أو نبي على وجه الأرض ؟ هذا أمر مشكوك فيه . ليلة القدر تعني ليلة الانسان الكامل ، ليلة الولي الكامل . ولكن ما الذي نفهمه من القرآن نفسه ؟ بعد أن قال القرآن ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ثم بعد ذلك يقول ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ ولم يقل ليلة القدر كانت خيراً من ألف شهر . والأهم من هذا هو إن ﴿ أنزلناه في ليلة القدر ﴾ جاء فيها الفعل بصيغة الماضي ، ولكنه بعد ذلك يستعمل المضارع ليدل على الدوام والاستمرار ، فيقول ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ﴾ أي إن الملائكة والروح ينزلون بأمر ربهم الى الأرض ، فهي ليلة لم ينقطع فيها الارتباط بين السماء والأرض ، إنها ليلة الارتباط بين السماء والأرض ، حيث لا ينزل ملك واحد أو اثنان ، بل الملائكة والروح (ينزلون) ، بصيغة المضارع وليس (نزلوا) بصيغة الماضي .

إن الذين لا يقولون باستمرارية ليلة القدر قليلون .

يقول الأئمة (ع) اسألوا هؤلاء ، عندما تنزل الملائكة والروح ليلة القدر ، الى أين تنزل ؟ هل تنزل الى

الأرض ، أم أنها تنزل على القلب ؟ إن الملائكة تنزل على الانسان ، على قلبه ، فينبغي أن يكون قلب الانسان قلباً جديراً بنزول الملائكة عليه . إن النزول لا معنى له غير هذا . فالقضية هي أن ليلة القدر ليلة الانسان الكامل . ولكن لماذا تكون ليلة القدر في رمضان ؟ في الاسلام ، لا معنى لأن تكون ليلة القدر في غير رمضان .

إن للأنبياء وللأولياء ، كالأئمة الأطهار والذين هم أعلى مرتبة من كثير من الأنبياء ، مسائل تخص عالمهم القريب من الله ، لا نستطيع نحن فهمها . فهذا موسى بعد ان يصبح نبيا ، ويريد أن تنزل عليه الأرواح ، يذهب الى ميقات ربه أربعين يوماً . في الليالي الثلاثين الأول لا يستطيع انهاء دورته السلوكية ﴿ واتممناها بعشر ﴾ لقد كانت المدة المقررة ثلاثين ليلة ، ولقد بذل موسى خلال تلك الليالي الثلاثين جهداً جهيداً لكي يبلغ مرحلة الجدارة النهائية ، ولكنه لم يستطع . فأضيف الى المدة عشر ليال أخر . كانت الليالي الثلاثون قد بدأت في غرة شهر ذي القعدة الى نهايته ، ولما لم يستطع ، أضيفت عشر ليال ابتداء من ذي الحجة حتى العاشر منه ، حينئذ فتح قلب موسى ، وحصل له ما كان ينبغي له . وقد حصل هذا كله بعد أن بعث بالنبوة .

إن لكل انسان ولكل وليّ دورة واحدة في السنة ، بل

إن لكل انسان ومؤمن وظيفته في أن يقيم الصلاة خمس مرات في اليوم ، ولكن له شهر واحد للعبادة ، والشهر المخصص للعبادة ، للتطهر ، للتوجه الى الله ، للسمو ، هو شهر رمضان .

فشهر رمضان قد عين لهذا ، ولهذا فهو أفضل أشهر السنة . لعل اليوم العاشر من ذي الحجة يعتبر في نظر موسى من أفضل الأيام ، ولكن في نظر نبي الاسلام شهر رمضان هو الأفضل . وفي هذا الشهر يستفيد الامام أضعاف ما نستفيد ، إذا أنه يبدأ مسيرته من أول الشهر حتى يصل الى ليلة هي ليلة القدر ، وعندئذ تفتح له الأبواب ، و﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ .

اما أية ليلة من ليالي رمضان هي ليلة القدر ، فان الروايات لم تبين ذلك ، وفي ذلك بعض التعمد . هل ليلة القدر هي الليلة التاسعة عشر ؟ أم الليلة الحادية والعشرون ؟ ام الليلة الثالثة والعشرون ؟ أم أن بعض المسائل تتهيأ في الليلة التاسعة عشرة ، ثم تبرم في الليلة الحادية والعشرين ، ثم تصل مثلا ، مرحلة التوقيع عليها في الليلة الثالثة والعشرين ؟ وهناك احتمال آخر في عدم تعيين ليلة القدر ، وذلك إن ليلة القدر في كل سنة تخص الامام وتتعلق بحالته في تلك السنة فقد ينهي الامام دورته السنوية في الليلة التاسعة

عشرة فتنزل فيها الملائكة عليه . وقد ينهي دورته في الليلة الحادية والعشرين ، او في الليلة الثالثة والعشرين . أي إن الدورة لا تقل عن ١٩ يوماً ، وهي تنتهي في واحدة من هذه الليالي ، وعندئذ هل يكون للانسان الكامل يد في مقدرات العالم او الناس ؟

قليلون اولئك الذين يصدقون أن تكون روح هذا الجرم الصغير لوحاً للتقديرات الآلهية ، إنما نحن لا نصدق ، لأننا لا نعرف الانسان ، فلا نعرف إن لوح روح الانسان الكامل هو لوح التقدير الالهي ، وإنه ههنا يتحقق النزول والتقدير .

وبناء على ذلك فان ليلة القدر هي ليلة الانسان الكامل ، وان القرآن قد نزل في تلك الليلة ، وإن النبي كانت له ليلة قدر في كل سنة ، وكذلك الامام وإن الأرض لا تخلو أبداً من الانسان الكامل ، وإن السنة لا تخلو من ليلة القدر ، وإن ليلة القدر لا تخرج عن شهر رمضان .

عرفنا إن ليلة القدر من ليالي رمضان ، تلك الليلة التي تتصل فيها الأرض بالسماء ، الملك بالملكوت ، وبحسب تعبير القرآن تفتح أبواب السماء على الأرض ، حتى تكاد تتحد الطبيعة وما وراء الطبيعة في كيان الامام

عن طريق وجوده ، وهو وجود مادي ملكي ، ووجود ما ورائي . وهذا ما يذكره لنا القرآن بصورة اجمالية :

﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ .

والخطاب طبعا للرسول هنا ، وفي أماكن أخرى يخاطب الناس ، إذ يقول إن البشر لا يدركون ما هي ليلة القدر . ترى ماذا في هذه الليلة يجعلها خيراً من ألف شهر ؟ هل هي ثواب العبادة فيها ؟ لم لا ؟ لأننا عندما نقيم الصلاة نقول ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فهنا تكون العبادة جماعية ، وتكون أرفع مرتقى ، وذلك لأن روح الانسان تكون عند ذاك على استعداد أكبر ، ولها حضور أقوى ، حيث يكون جمع من الأطهار مشغولين بالعبادة في اللحظة نفسها . ولقد ثبت أن للمادة أمواجاً تصل الى الطرف الآخر من الدنيا ، فكيف بالأمواج الروحية التي لا يمكن ادراكها ؟ فاذا كانت ليلة القدر ليلة يكون فيها الامام في حالة العبادة وفي تهيج روحي يجعل أبواب السماء تفتح على الأرض ، واذا كان أفراد من أمثالنا يرغبون في مثل هذه العبادة ، فان فيض السعادة الذي نحسه في هذه الليلة يعدل ألف ليلة . أي إن الجو الذي يولد يكون جو العبادة . جو التسامي ، جواً يناسب إحياء

الليل . إن فضيلة هذه الليلة لتربو على ألف من الأشهر العادية .

في الختام ، نخلص من هذه الأقوال الى أن القرآن يقول : إن القرآن قد نزل في ليلة القدر ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ وإن ليلة القدر أفضل من ألف شهر ، أي إن الليالي لا تبلغ هذه الليلة . لماذا ؟ ماذا حدث ؟ لأن الملائكة والروح (الروح في القرآن حقيقة أرفع من الملائكة) ينزلون بأمر من ربهم .

ولكلمة « الأمر » في القرآن استعمالات : فالأمر قد يكون إرادة حصول شيء ، وعندئذ يكون أمر الله هو وجود الشيء عينه . فاذا كان الأمر هنا هكذا ، يكون النزول ايجاداً إلهيا . وأما اذا كان الأمر أمراً ، فانه يرتبط بكل شأن من شؤون العالم .

﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ .

أي إن الليلة من أولها الى آخرها سلام وسلامة ، والسلام هي التحية ، وهي التي تلقيها الملائكة في الأياب وفي الذهاب . والسلامة هي لمن يريد في هذه الليلة أن يسلم من كل الآفات ، ومن الوساوس ، ومن كيد الشيطان .

تفسير سورة الزلزال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

إذا زُلْزِلَتِ ٱلأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ ٱلأَرْضُ أَثقَالَهَا . وَقَالَ الانْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحَى لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِيَرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ .

سورة الزلزال من السور المكية القصيرة التي تتناول يوم القيامة ، وهي من السور المثيرة والمؤثرة ، وتعد من مجالات بروز اعجاز القرآن ، لما فيها من روعة اللحن ، والجمال ، وقوة النفوذ الى النفوس .

﴿ اذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ .

أي ذلك الزلزال الذي ليس له شبه بأي من الزلازل التي يعرفها الناس في العالم . وذلك لوجود اختلافين بينهما :

الأول : هو إن الزلازل التي تحدث في عالم الانسان زلازل جزئية ومحدودة ، أي إن قطرها قصير ، قد يكون ٢٥ كم في ٢٥ كم ، أو أكثر ١٠٠ كم ، أو حتى اذا فرضنا أكثر من ذلك ٥٠٠ كم في ٥٠٠ كم ، وهذا ما لم يحدث حتى الآن . ولكنه يرتبط بأنواع من التحولات والتغيرات في باطن الأرض ، سواء أكانت هذه تخلخلاً ،

او ضغطاً للغازات الموجودة في مكان معين ، أو غير ذلك . ثم تخـرج هـذه الحمم من بـاطن الأرض . او الانهيـارات التي تسبب تـزلـزل الأرض في قسم منهـا . إلا أن هـذه ، عـلى كل حـال ، تهم أناس تلك المنـطقة الـذين يتعرضـون لها . أما البعيدون فلا يحسون بها بالمرة .

وهنـاك زلزلـة تقلب المنطقـة رأسا عـلى عقب ، فتطمـر مـدينـة في بـاطن الأرض ، ولكنـك اذا ابتعـدت بضـع عشـرات من الكيلومتـرات ، تجـد النـاس لا يعلمـون بمـا حدث .

أمـا الزلـزلة التي يشـير اليها القـرآن فـلا تـرتبط بنقـطة معينـة من الأرض ، إنها تشمل الأرض كلهـا بل لا تشمـل الارض وحـدهـا ، وإنمـا تشمـل كـل الكـون ، وكـل الشموس ، وكل الكائنات . فانظر كيف هذا ؟

والاختلاف الثاني هو إن الزلازل المـألوفـة تحدث بسبب تأثير عـامل في آخـر ، او قوة تؤثـر في قوة أخـرى أو في شيء آخر .

لنفـرض إننا جـالسون هنـا ، فتمر بهـذا البناء شـاحنـة ضخمة ، فانها سوف تجعل البنـاء يهتز قليـلا . فهذه البنـاية لم تهـتز بذاتهـا ، بل بقـوة عامـل خارجي أثـر فيها وأدى الى

اهتزازها ، او كأن يكون امرؤ واقفاً فيصدمه شخص آخر . اما الزلزلة العامة التي يشير اليها القرآن فناشئة من الداخل ، من باطن الكون فمن باب المثال ، نقول إن الجنين في رحم أمه لا تصدر منه حركة في أشهره الأول ، ولكنه عندما يبلغ الشهر الرابع ، مثلا يقال إنه تصدر منه اول حركة . فهل حركة الطفل حصلت بفعل عامل خارجي ، ام أنه قد تحرك بذاته وبفعل قوة باطنية ؟

إن قضية الزلزلة هذه تتعلق في الواقع بقضية أخرى ، وهي إن هذه الموجودات التي نطلق عليها اسم الجمادات التي لا تحس ولا تشعر ، هل هي حقاً فاقدة للشعور بكل معنى الكلمة ؟ أم أنها ، بحد ذاتها ، وليس بحد ذات الانسان ، تمتلك نوعاً من الشعور والادراك ؟ هذا موضوع يتكرر وروده في القرآن . فمرة يقول ما من كائن إلا ويسبّح بحمده ولكنكم لا تفهمون ذلك[1] . هنالك أيضاً نقطة أخرى يذكرها القرآن ، وهي : متى تتبدل الدنيا الى الآخرة ؟ عندما تظهر من جميع الموجودات وجوهها الأخر . ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ لَهِيَ ٱلحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يِعْقِلُونَ ﴾ حينذاك تنكشف الوجوه الأخر للاشياء .

---

(١) « وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (الاسراء : ٤٤) ـ المترجم .

تلك هي الزلزلة التي ستحدث في الكون ، كالجنين الذي يصل الى مرحلة الحركة . عندئذ يحس الانسان أن لكل ذرة من ذرات العالم حياة وشعوراً .

﴿ واخرجت الأرض اثقالها ﴾ أي عندما يخرج من باطن الأرض ما هو مدفون فيها ، كل الناس الذين دفنوا في الأرض وهم دفائن الأرض الثمينة ، لا الذهب ولا المعادن ، ولا النفط ، ولا ما هو مرتبط بهذه الدنيا .

﴿ وقال الانسان ما لها ﴾ ولكن الانسان الذي سبق أن عرف الزلازل ، يقول ، وهو جاهل بما يجري ، ما الذي يحدث للأرض ؟

﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾

أي إن الأرض يومئذ تسرد سيرتها ، سيرتها الطويلة الممتدة امتداد ملايين السنين .

﴿ بأن ربك اوحى لها ﴾ .

أي إن الله هو الذي أمرها . هنالك أبيات من شعر مولوي الذي كان متعمقاً الى حد يقل نظيره ، تخص هذا الموضوع . يقول :

عالَم اَفْسُرْده ست نام او جَماد
جماد افَسرده بود اي اوسْتاد

باش تاكر كَسي بِحَشْرِ آيد عيان
تابِبِيْني جُنْبِشِ جسم جَهانْ
« العلم جامد اسمه الجماد
والجماد كان جامداً ايها الاستاذ
ابق حتى نجتمع في الحشر عيانا
لترى حركة جسم العالم »

انه يشير الى هذه الزلزلة ، ويقول لا تظنن الميت ميتاً ، انما أنت لا تفهم ، لا تدرك ذلك ، انك لا ترى الآن إلّا جانبه الميت ، ثم يقول :

جُون عَصاي موسى اِيْنجامارشد
عقل را از ساكنان اِخْبار شد
« عندما انقلبت عصا موسى حية
أدرك العقل أخبار الساكنات »

ففي اليوم الذي انقلبت فيه عصا جامدة إلى حية، تبين للعقل أن الموضوع شيء آخر، وأننا ينبغي ألا نحسب الجمادات جامدة تماماً.

الموضوع شيء آخر ، وأننا ينبغي ألا نحسب الجمادات جامدة تماماً .

بارئي خاك تُراجون زِنده ساخت
خاك هارا جُمْلِكى بايد شِناخْتْ

« إنــه إذا أحــيــاك مــن بــعض تــراب
فــلا بـد من معــرفـة التــراب بجملتــه »

إن جسمك كان تـراباً ميتـاً ، ولكنه الآن حي . اذن يتضح أن المسـافـة بـين الميت والحي ليست بعيـدة جـداً ، فالميت قد يحيـا سريعـاً ، ولذلـك علينا أن نتعـرف على كـل الأتربة ، اذ فيها تكمن القابلية على الحياة .

إن وجـوهها التي تـواجهنا ميتـة ، ولكن وجـوههـا التي تتجـه نحو البـاريء سبحـانـه وتعـالى حيـة . إنها من حيث الطبيعة الربانية حية ، ومن حيث الطبيعة الخلقية ميتة .

مُــرده زِيْنْسُــويَنــد وَزان سُــورِنْــده انــد
خــاموشُي اِينجــا وآنجـا كــوينــده انــد
جــونــكــه آنها رافِــرِ سْتَــدْ سُوى مــا
آن عَــصــا كــردد سُــوى مــا اِزْدهــا
« ميتــة من هـذا الجــانب وحيــة من ذاك
صــامــتــة هــنــا ونــاطــقــة هــنــاك
و هــو اذ يــرسـلهــا الــيــنــا
تتحــول تـلك العـصــا حيــة عـنـدنــا »

فهـو اذ يرسلهـا الينا يـراها حيـة لا ميتة ، فـاذا أمرهـا حـولت جانبهـا الحي الينـا . ثم تجري القصيـدة تشـير الى جمـادات أحياهـا الله ، كالـريـح التي سخـرهـا لسليمـان ،

والبحر الذي ائتمر بأمر موسى ، والجبال لداوود ، وانشقاق القمر لمحمد ، وتحول النار برداً على إبراهيم . . .

﴿ يومئذ تحدث اخبارها ﴾ .

نذكر ما مر بها بحسب ما أوحى لها الله . وقد جاء كذلك في القرآن المجيد ، في سورة يس :

﴿ اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَكَلَّمُنَا أَيْدِيهِم وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاسُ أَشْتاتاً لِيَرَوا أَعْمالَهُمْ ﴾ .

أي يوم يصدر[1] الناس جماعات متفرقة . لماذا ؟ إنه

---

(١) إن للفعل (يصدر) في العربية معنى خاصاً ، لم اجد في الفارسية كلمة تقوم مقامه . فمثلا يقولون في الفارسية إن هذه الهوية « صادرة » من طهران ، ويستعلمون الكلمة العربية . او يقولون إن فلاناً « اصدر » الأوامر الفلانية . ويستعملون الكلمة العربية أيضاً . فاذا شئنا أن نرفع هذه الكلمة ، ترى ماذا يمكن أن نضع في مكانها لنحصل على المعنى نفسه ؟ ولما كانت كلمة « الصدور » تختلف عن « الخروج » في المعنى ، فلا يمكننا استعمالها بمكانها ، فاذا نحن بدلا من أن نقول إن الهوية «صادرة» من طهران ، قلنا إنها « خارجة » من طهران، يكون المعنى مغايراً لما نريد . في الأيام التي كانت فيها اللا عربية على أشدها ، وضعوا « مرسلة او مرسل » الفارسية بمكان « صادرة او صادر » . فمثلا قولهم : الهوية مرسلة من طهران ، لا معنى =

تعبير عجيب أيضاً .

﴿ ليروا اعمالهم ﴾ أي إن الناس يذهبون ليستعرضوا أعمالهم وأعمال الناس في هذه الدنيا طيلة حياتهم ، صغيرها وكبيرها ، حيث يتجسد العمل نفسه ويحضر . فكيف تكون حال الانسان وهو يدخل معرض الأعمال ؟ إنه لا يرى سوى السواد والظلام وأشياء على هيئة نيران وحيات وعقارب . وعلى عكسه الذي يؤخذ الى معرض ثواب الأعمال ، حيث إن أكثر ما يرى هو الأعمال الحسنة الجميلة ، بحيث قيل إنه لو كان الموت ممكنا يوم القيامة ، لمات أهل السعادة فرحا ، وأهل الشقاء كمداً . أي لو أن تلك السعادة التي توهب للانسان في الآخرة وهبت للانسان في دار الدنيا ، لتحجر فورا . ولو نزل ذاك

= له ، لأن وضع مرسلة بمكان صادرة لا معنى له ، لأن « مرسلة » ليست ترجمة لكلمة « صادرة » . والتجار أيضاً عندما يرسلون بضاعة من مكان الى مكان يستعملون كلمة « إرسال » أما إذا عطشت الحيوانات فوردت الماء وارتوت ، يوصف حالها عندئذ بالصدور ، أي إنها صدرت عن الماء .

ولكن تطور هذا المعنى فيما بعد ، حيث يقول القرآن : إن الناس في ذلك اليوم يصدرون من الأرض كالأمر الذي يصدر من صاحب أمر ، او كالهوية التي تصدر من مكان ما . هنا الناس هم الذين يصدرون .

الشقاء على احد في الدنيا ، لتوقف قلبه حالاً ومات .

﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ .

ثم يشرح القرآن معنى ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ بقوله :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

والذرة هي أصغر وحدة قياسية في العربية . أي بمقدار الذرة التي ليس أصغر منها جسم . من المعروف عندنا عندما نقول (ذرة نقصد أصغر معيار نعرفه مما لا يمكن أن نراه بالعين المجردة . وهي الذرات التي لا نراها اذا كنا في الشمس ، ولا نراها اذا كنا في الظل ، ولكننا نراها اذا كنا في الظل ومر منه عمود من نور ، كأن تدخل أشعة الشمس من احدىٰ النوافذ ، عندئذ يرى الانسان وسط ذلك العمود من النور دقائق صغيرة تتحرك . فهذه هي الذرات بالعربية ، أي أصغر شيء يظهر للعيان من الجسم . ومصطلح الذرة هذا يستعلمه العلماء والفلاسفة في قضايا الجسم ومم يتكون . فكان عدد منهم يرى (وهي النظرية التي تأيدت فيما بعد) ان كل جسم يتألف من اجسام صغيرة جدا . وهذه الأجسام الصغيرة جداً أطلقوا عليها اسم الذرات ، ذرات صغار صلبة كانوا

يعتقدون أنها غير قابلة للانشطار ، وهذه أيضاً هي الذرة في العلوم الحديثة .

على كل حال ، يقول القرآن إن من عمل مقدار ذرة من الشر فانه سوف يرى جزاءه .

والآن لاحظوا اللحن في السورة ، مع ملاحظة المعنى :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض اثقالها . وقال الانسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

تفسير سورة العاديات

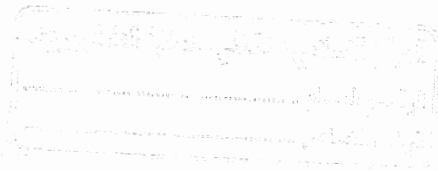

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلعَادِيَاتِ ضَبْحاً . فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحاً . فَالمُغِيَراتِ صُبْحاً . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً . إنَّ ٱلانْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَانَّهُ لِحُبِّ ٱلخَيْرِ لَشَدِيدٌ . أفَلا يعْلَمُ إذَا بُعْثِرَ مَا في ٱلقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا في ٱلصُّدُورِ . إنَّ رَبَّهُمْ بِهِم يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٍ .

هناك اختلاف بشأن هذه السورة ، أهي مكية ؟ أم مدنية ؟ فالقرائن نفسها تسبب الاختلاف فيما اذا كانت قد نزلت في مكة او في المدينة ، ومن حيث النقل أيضاً ثمة أسباب للشبهة . فمن جهة لحن السورة ذات الآيات القصيرة تشبه السور المكية ، لأن السور المكية نزلت في بداية بعثة الرسول ، وتتميز بآيات التحذير والتذكير والتخويف . أما السور المدنية فأغلبها يبين القوانين والقرارات ولهذا تكون طويلة وتفصيلية .

تفتتح هذه السورة بالقسم ، وهو قسم عجيب كان من أسباب القول بأنها مكية ، وهذا هو اعتقادي الخاص أيضاً ، بينما يقول آخرون انها مدنية بسبب مضمونها .

ما اعجب القسم في هذه السورة !

﴿ والعاديات ضبحاً ﴾

أي أقسم بالخيل الراكضة اللاهثة . والمقصود هو خيل المجاهدين . يقسم بخيل الجند ، الخيل التي تخب فوق الصخور والأحجار .

إن القرويين من أمثالنا ، اذا كانوا قد رأوا الفرس ذا النعل الحديد ، على الأخص عندما يتحرك فوق الصخور ، كيف ينبعث الشرر من حوافره جراء اصطكاكها بالصخور ، ذلك الشرر الناري البارق .

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ .

وهي الخيل التي تبرق حوافرها اذ تركض فوق الصخور .

﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ .

تلك الخيل التي تهجم على العدو عند شروق الصباح .

ما يزال يقسم بالخيل ، خيل الفرسان . والقسم بخيل الجند ، احترام للجند أيضاً ، فهم من سرعة الحركة والمبادرة بحيث أنهم يغيرون على العدو قبل أن يتحرك في معسكره .

﴿ فأثرن به نقعا ﴾ .

كان الكلام قبل هذا على الشرر الذي يوري البرق ، فيستدل من ذلك أن حركة الخيل تجري على أرض ذات صخور وأحجار . ثم يقول : ﴿ المغيرات صبحا ﴾ حيث يكون الهجوم على العدو ، فيرتفع الغبار والتراب الى عنان السماء . طبيعي أن العدو عندما يعسكر ، لا يعسكر فوق الصخور ، بل يعسكر في السهل ، لذلك فان المجاهدين يأتونهم من طرق جبلية وصخرية حتى لا ينتبه العدو لهم ، واذا بهم فوق العدو ، فينهض العدو ويتحرك ، فيرتفع الغبار الى السماء ، بحيث لا يبصر المرء ما أمامه . كما يقول فردوسي :

زِ سُمِّ سُتُوران دَر آن بَهْن دَشْتْ
زَمين شِشْ شُدْ ، آسمان كَشتْ هَشت

« من حوافر الخيل في ذلك لسهل الفسيح
غدت الأرض ستة والسماء ثمانية »

فيقذف المجاهدون بأنفسهم في ذلك الخضم ، ويندفعون الى قلب العدو . فما الذي تريد هذه الآية أن تقوله ؟ لماذا يقسم القرآن بهذه الأمور ؟ يريد القرآن أن يقول إنها أمور مقدسة عند الله ، فرس الجندي ، وحافر فرس الجندي ، والغبار الذي يثيره ، كلها مقدسة . ذلك التكبير الليلي الذي يصبه فوق رأس العدو ، وكمثل

الصاعقة يقع على رأس العدو ، ومبادرته ، كلها مقدسة .

جاء في الأخبار أن هذه الآية قد نزلت في إحدى الغزوات ، وتدعى « ذات السلاسل » وهي غزوة وقعت عندما هاجم المشركون المسلمين ، فارسل الرسول المسلمين لقتالهم بقيادة أبي بكر مرة ، وبقيادة عمر مرة أخرى . واقترح عمرو بن العاص على الرسول أن يلجأوا الى المكر والخديعة لانهاء الحرب . غير أن هذا لم يفلح أيضاً . وأخيراً عهد الأمر الى علي (ع) فاختار طريقاً غير مطروق عبر الجبال ، فعبروها ليلا ، وعند الصبح ، بين الطلوعين ، انقضوا على العدو ، وقضوا عليه .

وفي اليوم نفسه جاء الرسول الى المسجد في المدينة ـ وهي تبعد عن موقع المعركة كثيراً ـ لأداء الصلاة ، فقرأ سورة العاديات بعد سورة الفاتحة .

في هذه السورة ، كما في سورة الزلزال ، تذكير بيوم القيامة ، وايقاظ للشعور بالرجعة الى الله في الانسان . تثير هذه السورة في الانسان روح الجلاد والحرب بشكل عجيب .

وانتبه المسلمون الذين كانوا يصلون مع النبي أنه بعد سورة الفاتحة أخذ يقرأ آيات جديدة لم ترد على لسانه من قبل :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً . . . ﴾ .

قالوا له بعد انتهاء الصلاة : يا رسول الله ، لم نسمع بهذا من قبل . إنها المرة الأولى التي نسمع منك فيها هذه الآيات .

فقال الرسول : اليوم نزل علي جبرئيل وأخبرني بأن علياً قد قاد المسلمين من النقطة الفلانية ، وأنه سيعود منتصراً . وكان الناس يعلمون أن المسلمين كانوا هناك في محنة .

عندما يقسم الانسان بشيء ، يريد أن يقول إنه يحترم ذلك الشيء ويجله . ثم يقول :

﴿ ان الانسان لربه لكنود ﴾ .

أي ما أكفر الانسان بنعمة ربه ، فبدلاً من ان يحمد الله على نعمه ، يجحد بها . مثل الطفل الذي يريد له أبواه تمام الصحة والشفاء . فيعدان له دواءً او طعاماً ، فيرفضه ويريد أن يحطم كل شيء .

يقول المفسرون ، وهم على حق ، إن آية ﴿ إن الانسان لربه لكنود ﴾ إشارة الى الناس الذي يريدون

مهاجمة المسلمين في المدينة ، بدلا من أن يتقبلوا الدعوة التي يدعوهم بها الرسول . فهذه النعمة التي يهبها الله لهم يرفضونها ويحملون على المدينة . أهكذا تشكر النعم ؟ ﴿ إن الانسان لربه لكنود ﴾ .

« كنود » تعني « كفور » . أي الكفر بالنعمة ، والتنكر لها .

﴿ وانه على ذلك لشهيد ﴾

يمكن تفسير هذه الآية على وجهين . الأول إن ﴿ لحب الخير لشديد ﴾ تعني إنه شديد الحب للمال . والثاني هو إنه شديد جداً ، أي بخيل ، لماذا ؟ لأنه يحب المال حباً جماً . وقد عبر القرآن هنا عن المال بالخير ، وهو تعبير كثير وروده في القرآن ، حيث يعبر عن الثروة بالخير ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ .

أي إن الثورة بحد ذاتها ليست شراً ، إنما الانهماك بها هو الشر . على الانسان أن يكون حراً . وألا يكون تعلقه بشيء في الوجود إلا بالله . العلاقة قيد وتقيد ، مثل الحبل في رقبة الفرس ، فيربط بمكان ما في الاسطبل أو بشجرة . على الانسان ألّا يربط نفسه بشيء . إن تعلق الانسان بالله

هو الحرية عينها . لماذا ؟ لأن الانسان كائن غير متناه فما دام الانسان مع الله ، بقي الطريق أمامه مفتوحا ، وكلما سار انفتح الطريق أكثر ، ولو سار الى الأبد لما انتهى الطريق أمامه .

ولكن المال ، بخلاف الأمور الأخرى ، يثبت المرء في مكانه ، حسب القول السائد ، فيوقفه عن التحرك ، ويسد أمامه طريق السير نحو التكامل . والقرآن يعبر عن الثروة بالخير ، لأن الثروة ليست شراً بذاتها ، فلا ينبغي القول بأن الثروة شر ، فلماذا يمنحها الله للناس ؟ الجواب ، كلا ، ان الثروة ليست شراً ، بل تعلقك بها ، حب المال الذي فيك (وهو الحب والعلاقة) هو الشر . فعليك الا تطوق رقبتك به .

ثم إن الله قد خلق في الانسان حب الخير حباً مطلقاً . والخير المطلق هو الله ؛ فأنت قد تركت الخير المطلق ، وجئت تتمسك بشيء محدود لا ينفع الا كوسيلة ، ونسيت الغاية .

﴿ أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور ﴾ .

أي الا يعلم الانسان انه سيبعث ، وان ما في القبور

يستخـرج ، وينقى ، ويـكشـف عـما في دخيـلة الانسـان وبـاطنه ؟ ألا يعلم الانسـان ما سـوف يحدث عنـدئـذ ؟ ألا يعلم أن هذا ما ينتظره ؟

﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ .

فـاذا لم يكن يعـرف كـل ذلـك ، فليعلم إن الله عـالم وخبير ، ويعرف كل شيء .

تفسير سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَن ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْـرِ . إِنَّ ٱلانْسَـان لَفِي خُسْـرٍ إِلاّ ٱلّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـالِحَـاتِ وَتَـواصَـوا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَّبْرِ .

حديثنا يتناول سورة العصر المباركة التي لا تتجاوز آياتها السطر ونصف السطر .

في القرآن ثلاث سور قصيرة ، وهي سورة الكوثر ، وسورة الأخلاص ، وسورة العصر ، وهذه لا تتجاوز آيات ثلاثاً ، ولكنها سورة يمكن أن يكتب حولها مجلد ضخم ، يعتمد ما سوف نبينه من اصول .

هذه السورة واحدة من السور التي تبدأ بالقسم . والعصر قسم بالعصر . وهي تبدأ بآية تتألف من كلمتين : الواو و﴿ العصر ﴾ .

لقد سبق أن تكلمنا كثيراً على القسم في القرآن ، فلا حاجة الى تكرار ما قلناه ، سوى ما يقتصر على موضوعنا هنا . نجد القرآن يقسم أحياناً بالزمان ، بأوقات مختلفة من الزمان ، بالنهار ، وبالليل وبالضحى الى غير ذلك .

قلنا فيما سبق إن لكل من هذه الأزمان حكمته وفلسفته الخاصة التي تكشف عن أهمية ذلك بالنسبة للانسان ، عن قيمة الفجر والضحى والليل والنهار في حياة الانسان .

قلنا إن الآية الأولى تتألف من كلمتين ، الواو و﴿ العصر ﴾ . الواو معروفة . والكلام على ﴿ العصر ﴾ . فأي عصر هو المقصود ؟

هنالك احتمالان من بين الاحتمالات المذكورة ، واحد هذين الاحتمالين يرد أكثر من الآخر . الاحتمال الأول هو هذه الفترة المعينة من النهار ، وهي الربع الأخير من النهار ، وهي الفترة التي تقابل الضحى[1] .

والاحتمال الثاني لا يعتبر العصر كجزء من النهار ، بل كجزء من التاريخ ، كأن نقول (عصر الرسول) ، وهذا يعني فترة من التاريخ تشمل فترة دورة حياة الرسول ، او باعتبارات مختلفة اخرى ، كأن تقوم كل مجموعة بتقسيم التاريخ الى عصر العبودية ، او عصر

---

(١) عندما ترتفع الشمس كثيراً في السماء ، يطلق على هذه الفترة اسم « الضحى » . ثم اذا أخذنا النصف الثاني من النهار بعد الظهر ، وقسمناه الى قسمين ، يسمى القسم الثاني باسم « العصر » .

الاقطاع ، او عصر الرأسمالية ، او قد يقسم بعضهم الآخر التاريخ الى عصر حجري ، وعصر الحديد ، وعصر الذرة ، وعصر الفضاء ، الخ . . .

والحالة التي نحن بصددها هي عصر النبي (ص) ، أي أقسم بعصر الرسول .

لطالما قلنا إن الزمان من حيث كونه زماناً لا يختلف جزء منه عن جزء آخر . فالزمان امتداد واحد من الأزل الى الأبد ، ولا فرق بين أجزائه ، ولكن الاختلاف يأتي من حيث وجهة نظر الانسان الى أي جزء من اجزاء الزمان ، فالزمان من حيث ارتباطه بالانسان ، ومن حيث ارتباط الانسان به ، يتفاوت في الاختلاف ، فثمة عصر هو عصر الانسانية والتفتح ، عصر الانسان الكامل ، فلهذا العصر مثلا ، لون من القدسية .

فاذا أراد القرآن أن يبين أهمية ذاك العصر ، يقسم به ، فيقول : أقسم بعصر الرسول (ص) وقد يكون زمان ما ، من هذا المنظور ، أمّا لزمان آخر ، اي إنه يؤثر في خلق زمان آخر ، سواء أكان ذاك العصر سيئاً ام رديئاً ، اي قد يظهر عصر طيب ، يكون خلال دورة التاريخ أمّا ، او أرضية للطيبة والخير على امتداد التاريخ .

أي إن الانسان عندما ينظر الى ذلك العصر ، ويمعن

النظر فيه ، يرى أن كل ما كان في ذلك العصر يلهمه الخير ، والطيبة ، والسعادة ، او قد يكون على عكس ذلك تماما ، اي قد يكون عصراً من العصور المظلمة في التاريخ ، عصر ظلام وحلوكة آسنة قذرة ، ومع ذلك يكون أمّا لعصور سود سيئة .

﴿ والعصر ﴾ قسم بذاك العصر النير ، العصر المسخر للبشر ، العصر المبارك الكثير الخير الذي بزغ على البشر . اي عصر يبلغ من حيث قدرته على استيلاد البركة شأو تلك السنوات الثلاث والعشرين من عصر الرسول . ذلك العصر الذي يقسم به القرآن .

﴿ إن الانسان لفي خسر ﴾ .

سبق أن نوهنا مراراً وقلنا إن من أسس معرفة الانسان ، وأسس معرفة الانسان التي يصدق بها القرآن ، هو أن الانسان يختلف اختلافاً جوهرياً واصيلاً عن كل الكائنات الحية وغير الحية ، سواء أكانت دنيوية طبيعية ام مما وراء الطبيعة او فوقها . وهذا الاختلاف هو أن الانسان كائن يولد في هذه الدنيا بالقوة ، لا بالفعل . فما معنى هذا ؟ اذا نظرنا إلى الانسان عند ولادته نجده كائنا كاملا من حيث أجهزته وأعضائه (اي إنه ولد مصنوعاً) اذ أنه قبل أن يولد من أمه ، يتكامل عنده جهاز البصر ، وجهاز

السمع ، وجهاز التنفس ، وجهاز الدورة الدموية ، ويداه ، ورجلاه ويكمل كل هيكله ، مثل السيارة التي تخرج من المصنع ، الا أن الانسان بانسانيته ، لابكمال أعضائه . إنه إنسان له شخصيته ، وهذه الشخصية هي التي تبدأ بالتكون ، أي إنها تشرع بالتكامل ابتداء من بدء صناعته . فالانسان من حيث شخصيته أضعف الحيوانات .

قارن بين قطة حديثة الولادة وطفل حديث الولادة ، ترى أن القطة متقدمة على الانسان عملياً ، اي من حيث الادراك والفهم ، ومن حيث تمكنها من العناية بنفسها . ولا يصدق هذا على القطة الصغيرة فحسب ، وهي أضعف ادراكاً من باقي الحيوانات ، بل إنه أصدق على وليد البقر والحمار منه على وليد الانسان ﴿ خُلِقَ الانْسَانُ ضَعِيفاً ﴾[1] . فالطفل عند ولادته يبدأ من الصفر من حيث الشخصية ، ثم تأخذ شخصيته بالتخلق شيئاً فشيئاً في أحضان أمه وأبيه وفي محيطه الاجتماعي ، ويصل تدريجيا الى مرحلة الرشد والبلوغ الفكري ، والى مرحلة التمييز والاختيار ، ثم يكون هو الذي يختار لنفسه طريقه ، وهذا أهم من كل أمر .

---

(١) سورة النساء : ٢٨ .

من هنا نصل الى احد الفروق الاساس بين الانسان وغير الانسان . اذا ما تعرض المولود الذي يولد مصنوعاً كاملا الى الأذى ، يكون ذلك من الخارج ، فالحيوان يتعرض الى الأذى اذا منع عنه الطعام ، او اذا أتته ضربة من الخارج ، كأن تقطع يده ، او رجله ، او يقتل .

فعامل الخسران هنا من الخارج ، وهو الذي تسبب في ايصال الضرر الى الحيوان . اما الانسان ، وفي مرحلة ما قبل التأثر بالعامل الخارجي ، وقبل ان تصل اليه آفة من الآفات ، تكون خسارته الأولى في كونه لم يكتمل صنعه بعد . إن الانسان هو المسؤول عن صنع شخصية ، اي إنه انسان بالقوة .

إن سنّة الطبيعة هي التي صنعت من القطة قطة ، ومن الكلب كلباً ، اي إنها خلقته بصورة كلب ، وكذلك الفأرة خلقتها سنة الطبيعة فأرة ، وهكذا وردة الشمعدان ، وغيرها .

إنما الانسان هو وحده الذي اذا أراد أن يكون مصداقاً لنوعه ، فعليه ان يصنع نفسه انساناً بنفسه ، فان لم يصنع ، فقد مني بأفدح الضرر .

فما الذي يجعل الانسان انساناً ؟ بم تكون انسانية الانسان ؟ بالهيئة ؟ انها مشتركة بين الانسان والحيوان .

تَنِ آدمي شـــريف استْ بِـــه جـــانِ آدَميّت
نَـه هَمـين لِبـاس زِيبـا استْ نِشـــأن آدَميت
اكر آدمي بِحشْمَ اَسْت وَزبانُ وَكُوشُ وبيني
جِه فرقِي ميان نقش ديواراست وميان آدميت

« جسم المـــرء يشـرف بـــروح الانســـانيـــة
فليس الـرداء الجميل دليـلاً على الانسـانيـة
فاذا كان المرء بالعين واللسان والأذن والأنف
فما الفرق بين نقش على الجدار والانسانية؟»

فالانسان ليس بالصورة الخارجية ، ولـذلك تجـد الفرق أحياناً بين انسان وانسان ما بين السماء والأرض .

خـــذ النبي وأبـا جهـــل من حيث الهيئـــة الخـــارجيـــة للمقـــارنـــة ، فهـــل كـــان للنبي قلبـــان ولأبي جهـــل قلب واحد ؟ كلا ليس بينهما من حيث الأعضاء فـرق بالمـرة . إلا أن مـوسى من حيث إنـه مـوسى ، وفـرعـــون من حيث أنـه فرعون ، يختلفان . أي إن الفرق بـين الشخصية المـوسويـة والشخصية الفرعونية مثل الفرق بين السماء والارض . خـذ أبا ذر ومعاوية وقارن بينهما . كان كـلاهما اذا دخـلا مجلساً لم يعـرفهما احـد . فهل لـو نـظر احـد الى جبـين أبي ذر وجـد اسمه منقوشـاً عليه ؟ كـلا ، بل لعـل الناس كـانوا يخلطون

بينهما ، ولا يعرفون من منهما هذا ومن منهما ذاك . ولكن كان أبا ذر كأنه من طينة ومعاوية من طينة أخرى ، وهذا اختلاف يتصل بالشخصية .

وعليه فان الانسان هو المسؤول عن نفسه ، عن صيرورته انساناً ، وعن بقائه انساناً .

والانسان يصنع نفسه بعمله ، ويكون انساناً بنوع عمله ، فثمة أعمال تبعد الانسان عن الانسانية ، واخرى تقربه منها .

هذه الفكرة يطرحها القرآن قبل أربعة عشر قرناً طرحاً كاملا ، وقد شرحت ذلك في تفسير سورة المرسلات مفصلا .

ولكن القرآن ينظر الى انسانية الانسان من جانبين : جانب الايمان وجانب العمل . والايمان هو نفسه ركن وقاعدة . إن فلسفات هذا العصر لا تثمن الايمان تثميناً ذاتياً ولا تثميناً أصيلا . صحيح إنها تقول بلزوم الفكر الجيد والايمان الجيد ، ولكنها ترجعهما الى ذهنية الانسان ، وتقول إن قيمة الذهنية تكمن في مقدار حثها الانسان على العمل ، أي إن للتقويم مقدمة. كان هذا هو رأي بعضهم في صدر الاسلام ، ومنهم الخوارج .

لا شك إن رأي القرآن مختلف . فمعرفة الله في القرآن لازمة بقطع النظر عما ينتج منها من عمل (وهي لا ريب منشأ كل عمل) . فلو فرضنا إن معرفة الله منفصلة عن أي عمل ، فانها بحد ذاتها نصف الانسانية ، إن لم نقل كلها .

الايمان بالله ، الايمان بالأول ، الايمان بالمعاد ، الايمان بالآخرة ، الايمان بالوسط (الدنيا) ، ترى ما دورها في العمل ، وما الموضع الذي ينبغي أن نتخذه في هذه الدنيا ؟

إن معرفة هذه الأمور في نظر القرآن تتلخص في القرآن بأن الايمان والعمل لا يمكن الفصل بينهما . ألا ترى كم يرد في القرآن :

﴿ آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

إن آيات كهذه تتكرر بحيث إن المرء كلما قرأ ﴿ آمنوا ﴾ انتظر أن يرى وراءها ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ . ليس صحيحا القول بأن على الانسان أن يكون ذا إيمان قوي ثابت ، ولا يهم بعد هذا إن كان يعمل أولا يعمل . ﴿ أعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ أي ثابر على عبادة الله الى أن تبلغ مرحلة اليقين في الايمان ، فاذا بلغت هذه المرحلة ، يبدأ الشيطان يوسوس لك قائلا : ما لك

وللعمل وما نفعه لك ؟ وفي ازاء هذه يوجد أناس (كالخوارج في صدر الاسلام) يعتقدون بضرورة العمل ، بصرف النظر عن إيمانهم وعدم إيمانهم . ولهذا يقولون إنه اذا وجد في أي مكان من العالم أناس يعملون مثلما يعمل المسلمون ، حتى وإن لم يكونوا يعرفون الله ، وحتى لو لم يؤمنوا بالمعاد ، فانهم ، بعملهم الصالح ، يكونون قد وصلوا الى ما كان الرسول يدعوهم إليه ، ووصلوا الى سعادة الدنيا والآخرة ، ولا فرق بينهم وبين المسلمين ، فما الايمان إلا مقدمة ! ولكن الايمان ليس مقدمة البتة . لا الايمان مقدمة ولا العمل . بل هما ركنا سعادة الانسان .

اما وقد عرفنا إن الانسان ليس كائناً كامل الصنع ، وإن هذا هو أساس خسرانه ، فاننا لا بد ان نعرف أيضاً إنه اذا أراد إتقان صنعه لأمكنه ذلك بأمرين اثنين : الأول نظري والآخر عملي ، الأول من نوع المعرفة ، والثاني من نوع العمل . فالنظري الذي من نوع المعرفة ، هو الايمان ، الايمان بالله ، بالأنبياء ، وبالملائكة ، وبالرسل ، وبالكتب ، الايمان باليوم الآخر ، وبالامام القائد . وهذه كلها من اصول الدين . فأولاً معرفة هذه الامور والاعتقاد بها ، وادراكها ، وثانياً العمل .

اذن ﴿ إن الانسان لفي خسر ، الّا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات ﴾ .

فما هو العمل الصالح . وأي تعبير هذا ؟ إن للفقهاء وعلماء الأصول مصطلحات ، منها : العناوين الأولية والعناوين الثانوية ، اي ما يذكرونه أحيانا بعنوانه الأصلي ، مثلا الصلاة ، وهو العنوان الذي يطلق على هذا العمل ، او الاحسان الى الناس ، وهو اسم لهذا العمل ، ونقول الزكاة اسما لهذا العمل ، وهكذا الصوم ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والانفاق والصدق ، والصداقة الخ . . . ولكن الأعمال ، كما تعلمون ، تختلف باختلاف المواضع ، وباختلاف الظروف الزمانية ، وبحسب أحوال الفرد . فكيف ؟ أي إن أمراً ما في لحظة ما يكون واجباً عليك ، وفي لحظة أخرى يكون مستحباً ، وفي لحظة ثالثة يكون المستحب نفسه مختلفاً .

مثال : لنفرض إنك مدين الى دائن ، مدين ديناً شرعياً لدائن شرعي يصر على تسدسد دينه ، قائلا إنه محتاج ولا بد لك من تسديد المبلغ ، فتقول له : انتظر حتى أقيم الصلاة ، ثم أدفع لك المبلغ . فيقول : لا أنتظر . أعطني حقي ثم صل . او لنفرض إنك وقفت تهم بالصلاة . واذا بمريض في بيتك في حالة حرجة ، فماذا تفعل ، فيما اذا لم يكن وقت الصلاة قد فات ؟ فهل

الصلاة في هذين الظرفين عمل صالح ؟ تكون الصلاة عملا صالحا اذا سددت دينك اولاً ثم أقمت الصلاة .

اما اذا أخذت تجادله وتقول له : هل أنت اصبحت اكبر من الله ؟ إن الله اكبر منك ، فهل تريدني ان اؤجل دين الله وأسدد دينك ؟ كلا ، أريد ان أصلي اولاً . هذا خطأ ، وإن صلاتك هذه ليست عملا صالحا ، لأن وقتها لم يكن قد فات بعد . اذهب وسدد دينك ثم صل . كذلك الأمر فيما يتعلق بالمريض . اذ عليك ان توصل المريض الى الطبيب ، ثم تقيم الصلاة . وهذا ما يطلق عليه اسم العنوان الثانوي ، وهو يتغير بتغير احوال الأفراد ؛ او بتغير الظروف الاجتماعية . إنني الآن قد اتخذت طريقي ، سواء أكنت على صواب أم على خطأ ، وسواء اذا وبخت أم لا ، المقصود هو إنني سواء اذا كنت سليماً في تشخيصي أم لم اكن ، على كل حال ، فقد مشيت ، وتعلمت هذه الكلمات المعدودة من العلوم الدينية ، وانت درست الطب ، ولم يعد أمامنا كلينا ، ونحن في هذه السن ، مجال للعودة الى البداية ، لابدأ أنا بدراسة الطب ، وتدرس أنت العلوم الدينية . إن مهنة الطب مهنة ضرورية للمجتمع . ووظيفة الارشاد الديني أيضاً وظيفة لازمة للمجتمع . ولكن ما هو واجبي اليوم ؟

واجبي هو أداء ما أستطيع اداءه جيدا وما هو واجبك أنت ؟ هو اداء ما تستطيع أن تؤديه على خير وجه .

ولكن لنفرض إن احداً درس وتخصص في الاقتصاد ، مثلا ، ولكنهم يجعلونه وزيراً للصحة ، والذي درس الطب يعطونه وزارة الاقتصاد . هذا بالطبع مفيد في ارباك الأمور . إن العمل الصالح هو العمل الذي تستطيع أن تؤديه على خير وجه ، لا أن تعرفة جيداً ، بل أن تؤديه جيداً .

ولهذا يستعمل القرآن تعابيره الخاصة ، مثل العمل الصالح ، وهو العمل اللائق ، ولياقة بالطبع مفهوم نسبي ، متغير ، يختلف باختلاف الأزمنة ، ويختلف باختلاف الأشخاص .

فلنفرض إن عدداً من الطلاب يريدون الذهاب للدرس ، فيخضعونهم الى امتحان التقدير للتعرف على ميولهم واستعداداتهم ، فمنهم من يميل الى الآداب ، ومنهم من يريد الرياضيات ، وآخر الطبيعيات .

والعمل الصالح هو أن يسلك الطالب ذلك المسلك الذي يجد إنه اكثر استعداداً لتقبله من غيره . فاذا قال الذي استعداده للرياضيات إنه يريد دراسة الأدب ، فلا

يكون هذا عملا صالحا . العمل الصالح هو أن تسير على وفق استعدادك . وعلى ذلك فان آية ﴿ عملوا الصالحات ﴾ تبين إن على الانسان ان يعمل ، وان عمله يجب ان يكون مناسباً ، اي يجب ان يزن الظروف التي يعيش فيها ، فيختار العمل الذي يكون أصلح للناس والمجتمع .

وعليه ، فان ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ تبين مسألة العمل ، وفي الوقت نفسه تبين الواجب الملقى على عاتق الانسان . اي إن المؤمنين عمال ويعرفون الواجب أيضاً ، فهم يدركون واجبهم وما يجب عليهم أن يعملوا في الظروف الآنية التي هم فيها ، وكيف يجب ان يعملوا .

هكذا يكون الموضوع قد استبان ، وهو : يا أيها الانسان ليس خسرانك أن يصيبك ضرر من الخارج ، فهذا يصيبك ويصيب غيرك من الكائنات ، ولكن خسرانك يأتي قبل ذلك . إن خسرانك اليوم يكون فيما اذا لم تصطنع نفسك حسبما يقتضيك الايمان والعمل ، ولم تجعل من نفسك إنساناً واقعياً . فهل ينتهي الأمر عند هذا ؟ كلا ، ثمة شيء آخر ، وهو : ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ .

هنا يقول القرآن : أيها الانسان إنك لست كائناً

فردياً ، بل أنت كائن اجتماعي ، فلا تظنن أنك قادر على حمل أثقالك بمفردك ، اي إنك لن تستطيع اداء عملك الصالح وحدك . فاذا لم تكن الظروف الاجتماعية مواتية ، فانه لا يقول : يستحيل القيام بعمل . صحيح إن العمل لن يكون سهلاً وإن تعب المرء قد يصبح أضعافاً مضاعفة ، ولكنه لن يكون مستحيلا ، كأن يحاول المرء أن يسبح بعكس تيار الماء . فاذا كان ماهراً في السباحة ، فانه يستطيع السباحة ، ولكن ما مقدار هذه الاستطاعة ؟ فقد يسبح عشرة أمتار ، او عشرين ، او مئة او ألف متر ! ثم تتقطع به الأنفاس ، ويتعب .

كلا ، فلنتعاون مع الأخرين .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَىٰ ﴾ .

أي إنني أنصحكم في جملة واحدة . قوموا في سبيل الله ، اثنين اثنين ، او فرداً فرداً . اي اذا لم يعثر الانسان على الثاني ، فلا ييأس ويظن أن القيام لم يعد ممكناً . والقضية لا تقتصر على الاثنين فقط . كلا ابحث عن أفراد آخرين ، وكونوا إثنين ، او ثلاثة ، فان لم يمكن فقم بالأمر منفرداً .

﴿ وتواصوا بالحق ﴾ وتواصوا من الوصية ، والوصية في اللغة تعني العهد والايصاء ، وتكون في حياة الرجل او بعد مماته ، فهي الوصية .

أمير المؤمنين كثيراً ما يردد في نهج البلاغة « اوصيكم عباد الله . . . » اي أعهد اليكم أيها الناس ، وأنصحكم ، ولا يعني إنكم أوصيائي من بعدي .

و﴿ تواصوا ﴾ من أفعال المشاركة ، من باب تفاعل ، اي أن يقوم بالفعل طرفان يتبادلان الفعل . ففي العربية اذا قلنا (ضرب) . يكون هناك شخص ضارب ، وشخص آخر (او شيء آخر) مضروب . ولكن بقولنا تضارب الرجلان ، نعني إن كلا من الرجلين كان ضارباً ومضروباً ، اي إن أحدهما ضرب الآخر وبالعكس .

و﴿ تواصوا ﴾ تعني التوصية المتقابلة . فما معنى التوصية المتقابلة ؟ معناها مراقبة الناس ، كأن أراقبك دائماً والاحظ أعمالك ، وألفت نظرك كلما لاحظت منك غفلة : انتبه ! وكذلك تقولها أنت لي ولغيري ، وهكذا يتبادل الناس التحذير والتنبيه . . .

إنْ الأفراد أشبه ما يكونون بالجنود الذين يحاربون في ساحة واحدة ؟ فيحسون لو أن أحداً من الاعداء انسلّ الى

صفوفهم ، لأنزلوا به ضربة قاصمة .

اذن ﴿ تواصوا بالحق ﴾ تقول : أيها الانسان إنك في خسران ما لم تبن نفسك بالايمان وبالعمل ، لا منفرداً ، بل عليك أن تسعى لبناء الآخرين معك ، ويكون كل منكم عوناً للآخر .

﴿ تواصوا بالحق ﴾ تعني إن المؤمنين يملك احدهم الآخر ، ليس للمنفعة المادية ، بل كل منهم ظهير للآخر في سبيل الحق .

* * *

﴿ يا ايها الذين آمنوا اصبروا ﴾ يا اهل الايمان ، جاهدوا وقاوموا .

و﴿ صابروا ﴾ من باب المفاعلة ، اي فليكن لكم صبر متقابل ، اي عليك ان تحمل صاحبك على الصبر ، ويحملك صاحبك عليه ، او ان صبرك ينعكس فيه ، وصبره فيك . ولعل هذا هو المقصود من ﴿ تواصوا بالصبر ﴾ . فأنت تحمله على الصبر بقولك وفعلك ، وهو كذلك يفعل .

و﴿ رابطوا ﴾ حسبما جاء في تفسير الميزان ، يعني التواصل بالحق ، اي : أيها المؤمنين فلتكن الروابط فيما

بينكم متينة مستحكمة .

لقد ظهر في هذا الزمان شيء اسمه الحزب ، فما معنى الحزب ؟ معناه انعقاد عهد مدرك بين الافراد ، ومعونة بعضهم بعضا ، وتقسيم الواجبات فيما بينهم . والكلمة من لغة القرآن :

﴿ ألا انّ حزب الله هم الغالبون ﴾ .

لقد ورد في القرآن اسم حزب الله في قبال حزب الشيطان ، بالمعنى الواقعي ذاته ، اي ابرام العهود ، الارتباطات التي نعقدها مع بعض ، والمسؤليات التي نقسمها فيما بيننا ، حتى لا يكون العقد الذي يعقده بضعة جواسيس ممن يتزيوّن بلباس الدين أقوى آصرة بحيث أنهم يدركون انه لو وجد احدهم في اقصى قرية من آذربايجان وكانت به حاجة الى شيء في طهران لأوصلوها اليه ، بينما لا نكون نحن على علم بما يجري من حولنا ، ولا نعلم شيئا عن احوال جيراننا . هذا يخالف دستور القرآن الذي يقول ﴿ ورابطوا ﴾ .

ان هذه المعاني وضعت في هذه السورة ، مثل القسم بالعصر ، العصر الذي يمكن ان يكون ولودا لعصور اخرى ، العصر المشعشع الذي يلد عصورا مماثلة ، ويصل اشعاعه الى ازمنة اخرى ، بحيث ان جلستنا هذه التي

نتذاكر فيها تكون من بركات ذلك العصر . ﴿ والعصر ﴾ قسم بذاك العصر المشعشع المليء بالبركات ،عصر رسول الله .

ان الانسان ما دام لم يصنع نفسه بالايمان والعمل الصالح ، فانه في خسران . ومن هنا يكون اختلاف الانسان عن المخلوقات الأخرى ، وهذا موضوع له ذيول كثيرة .

كيف يُصنع الانسان ؟ ابا لعمل وحده ، ام بالايمان وحده ؟ ام بهما كليهما ؟ هل العمل مفهوم مطلق ، وهل هو نفسه في كل مكان ؟ ام انه يتبدل لحظة بلحظة ؟ ان له قبل خمس دقائق صورة ، وبعد خمس دقائق له صورة اخرى .

ههنا رجل يقع في حوض ويكاد يغرق ، فهنا تحرم عليّ الصلاة . على ان أنقذه فورا . على الانسان اذن أن يعرف واجبه ، وان يعرف ما هو العمل الصالح . يجب ان يميز بين المهم والأهم من الأمور . نعم ، عليه ان يدرك ان الانسان ليس فردا منفردا ، بل كائن اجتماعي .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ عليه ان يعرف أنه لكي يثابر ويستمر ، لا بد له من الصبر ، ولا بد له من المقاومة ، ولا بد له ان يتحمل الكثير حتى تناله نصرة الله .

انني اوصيكم بالحق دائما وأرشدكم ، وأنتم كذلك . انه لمن الخطأ أن ننظر الى الوعظ على انه مجرد مهنة من المهن . ولا أعني بهذا ان الحاجة منتفية لها . انما نحن نريد من ينصحنا ويرشدنا . وهذا لا يتطلب حتما ان يكون هذا شخصا قضى سنوات يدرس العربية ، معمما يصعد المنبر ، ثم يقول : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم يبدأ بالوعظ والارشاد ! ليس الأمر هكذا . علينا جميعا ان نكون وعاظا ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ ويرشد بعضكم بعضا الى الحق .

الموضوع الآخر هو صعوبة المسألة وادامتها ، ففي الآية الأولى من سورة الملك المباركة نقرأ :

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير الذّي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ .

يشرح أئمتنا هذه النقطة في القرآن قائلين : انظروا ، لم يقل الله ﴿ اكثر عملا ﴾ بل قال « أحسن عملا » . اي ان القرآن يعني بالكيف لا بالكم ، فالكيفية بالدرجة الأولى . وهنا يضيف أئمتنا قائلين : البقاء على العمل اصعب من العمل . اي ان ادامة العمل أصعب من العمل نفسه ، وذلك لأن المرء قد تنتابه رغبة مفاجئة ، ويتشوق للقيام بعمل صالح ، وتكون هذه الحالة عابرة ،

سرعان ما تخبو .

لقد طرق سمعي قبل فترة ان شخصا بعيدا عن خط الاسلام قد التقى رجلا صالحا ، فاستطاع هذا ان يعود بالرجل الى طريق الصلاح ، وقد سمعنا ايضا ان هذا قد تقدم حثيثا في طريق الخير بحيث اننا رحنا نغبطه. ولكننا ما لبثنا حتى سمعنا بأنه قد رجع القهقهري رجوعا عجيبا ، حتى انني لم اصدق قولهم انه قد ترك الصلاة .

علينا ان ينبه بعضنا بعضاً الى عثرات الطريق . اننا نحتاج الى الصبر ، والى المقاومة . يقول القرآن ان المؤمنين السعداء لا يفتأون يتواصون : أخي ، احذر ان ينفذ صبرك ، وان ينتابك الملل ، عليك بالمثابرة ، فما زالت في الطريق عثرات كثيرة .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ . فبالاضافة الى التوصية بالحق ، يوصي القرآن بالصبر على الشدائد : البقاء على العمل اصعب من العمل .

قد يخدع الشيطان الانسان ، يخدع نفسه الأمارة ، فيثق المرء بنفسه ، ويستبعد نكوصه ، مع ان اناسا ارفع منا قد انخدعوا بذلك ، وضلوا السبيل . وعليه فان الايمان والعمل الصالح ، كما يقول المفسرون ، يتضمنان التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، لانهما جزء من العمل

الصالح ، ولكن القرآن ينص تخصيصا ، قائلا : ايها الانسان ، انك كائن اجتماعي ، فلا تظنن انك قادر على ان تنهض بحملك وحدك ، او ان تعبر البحر بمفردك ، بل عليك ان تضع يدك بيد الآخرين لتنجو ، عليك ان تتعاون وان تتحرك مع غيرك ، ولا تنس ان الاستمرار في العمل اصعب من البدء به .

ان كلمات امير المؤمنين (ع) عجيبة . يظن المرء ، وهو يحارب تحت لواء النبي ، انه منتصر دون ريب ، ولكننا اذا لم نمر بالاختبار فردا فردا ، واذا لم نصبر ، واذا لم تبرز ارادتنا وقدرتنا على ضبط النفس ، فان الله لا يسبغ علينا نصره .

ثم يصف الامام كيف كانوا يناجزون المشركين ، وكيف انهم كانوا ثابتين ويقاومون :

﴿ مرة لنا ومرة لعدونا . فلما رأى الله منا الصبر ، انزل علينا النصر ﴾ نقرأ في سورة السجدة : ﴿ وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ .

والسلام